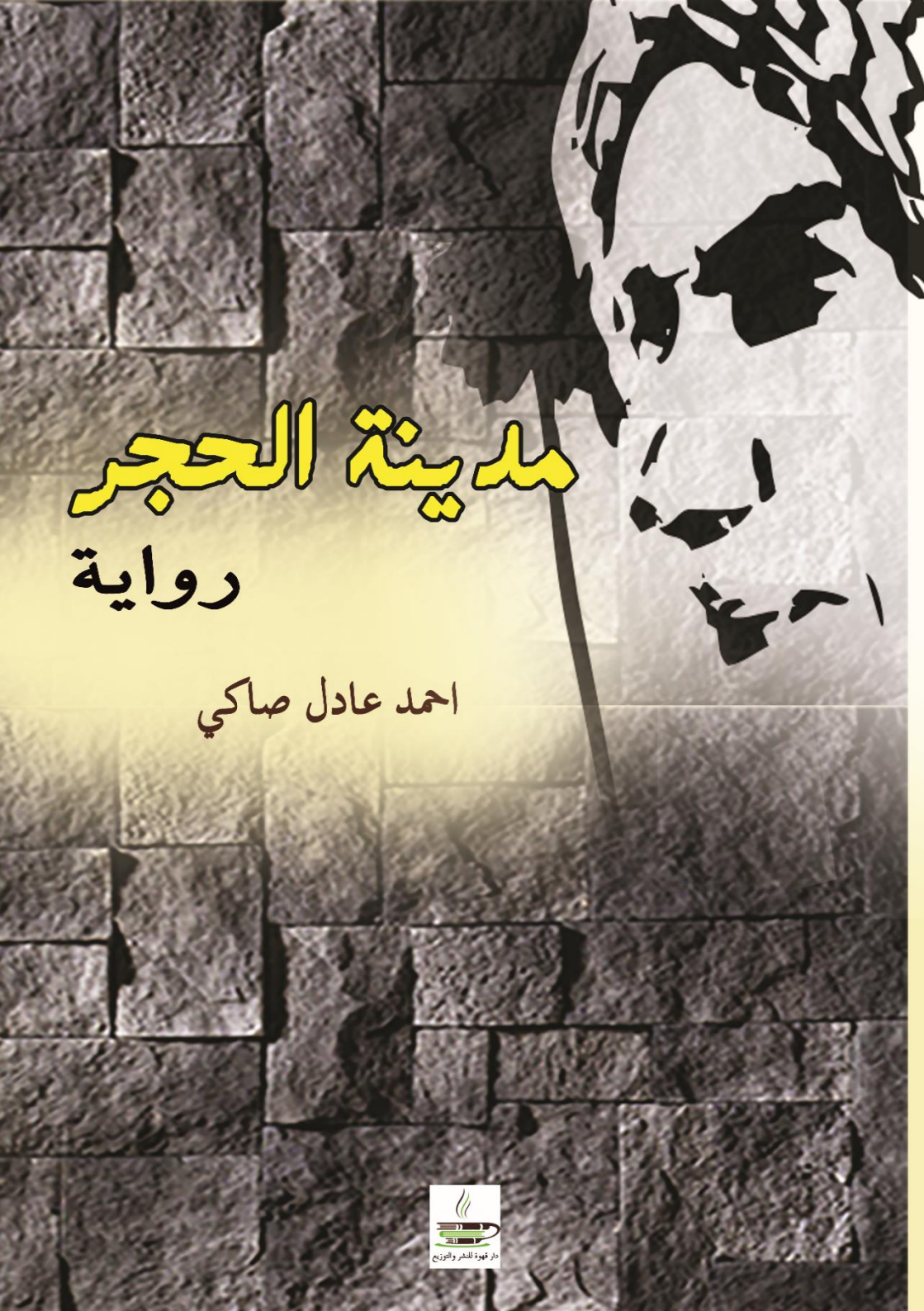
مدينة الحجر
رواية
احمد عادل صاكي
دار قهوة للنشر والتوزيع

سرشناسه	:	صاکی، أحمد عادل ۱۳٤٥.
عنوان وپدیدار	:	مدینة الحجر /أحمد عادل صاکی
مشخصات نشر	:	اهواز : نشر قهوه، ۲۰۲۰م.= ۱۳۹۹
مشخصات ظاهری	:	۱۲۸ ص. ۱٤.٥×۲۱ س م
شابك	:	۹۷۸-٦۲۲-۷۰۷٦-۱۱-۰
وضعیت فهرستنویسی	:	فیپا
موضوع	:	داستان‌های عربی - قرن ۱٤
موضوع	:	Arabic fiction - ۲۰th century
رده‌بندی کنگره	:	PJA ٥۲۹۸
رده‌بندی دیویی	:	۸۹۲/۷۳٦
شماره کتابشناسی ملی	:	٦۰۷٥۷۰٤

نشر قهوه

أحمد عادل صاكي

مدينة الحجر

دار قهوة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى/١٣٩٨ هـ.ش - ٢٠٢٠ م.

عدد النسخ: ١٠٠٠

الترقيم الدولي: ٠-١١-٧٠٧٦-٦٢٢-٩٧٨

السعر: ٣٠٠/٠٠٠ ريال

العنوان: الأهواز-حي معين زاده - شارع لادن ٤ - عمارة الصادق - شقة ١

رقم الاتصال: ٠٩١٦٩١٠٢٦٩٤.

مدينة الحجر
روايـــة

أحمد عادل صاكي

دار قهوة للنشر والتوزيع

«ساكن البلد الغريب مثل العبد» حكمة سومرية

«نحن ذاكرتنا، نحن ذلك المتحف الخيالي للأشكال المتحوّلة، تلك الكومة من المرايا المكسورة» بورخيس

الإهداء

إلى أبطال الرواية ...

الذين خُلقوا من الطين، فصمدوا ولم يتحجّروا

-١-

أربعة أمامية واثنان في الخلفية، والجاكيتة يعتليها اثنان آخران، أزرارهما معدنية، بلون ذهبي كما أزرار الكُمّين والصدر. ليلة العيد تبلغ ذروتها حُمّى الملابس الجديدة. غداً سأعرف السّر في كثرة الجيوب لبدلتي الجينز الزرقاء. تبرق عيناي وأنا أرتدي البنطلون تليه الجاكيتة . البصرة. أبوفارس[١] يتحزّم بكوفيّة ويعتمر أخرى. أمي تراقبني في تودّد ونشوة وحنان أختي ذات الربيع الواحد تجلس في أحضانها؛ تُمسّد شعر دميتها الذهبي. ستختفي تنكة السحور لتحظى بدور آخر؛ قانون تبادل الأدوار الذي يحكم الحياة، لا مناص منه، فحتى التنكة لا تجد مهرباً ربّما ستُحشى بالنفط أو بالبقلاوة، يدور بها عبّود الأعرج في الأسواق والأزقة، تلتف حوله *الطيطيان* كما تقول جارتنا العجوز. ابتسامتها المشرقة تسبق وهَج ملابسها الملوّنة لتبشّر بقدوم

١ – ممثّل كوميدي عراقي اسمه خليل الرفاعي

العيد قبل أن يلوح في الأفق هلاله الشّاحب. كعادته يُعلن تلفزيون البصرة العيد رسمياً، لتحلّق به أغنية أم كلثوم:

يا ليلة العيد أنستينا...يا ليلة العيييييد.

لكنَّ فرحتي لم تكتمل فوجدتني أخاطب أبي متأففاً:

– بابا ... البنطرون عريض... ينزل...

– لو چنت يم خالك بالكويت، چان اشترالك بدله عله گدك. بس لاتخاف . شدّ الحزام الحد ما تكبر... راح تكبر بسرعه . النوب يصير عله گدك.

طالما أغرتني الوعود لاسيّما وعود أبي. هناك رغبة في داخلي للرضوخ لمغرياتها. كلّما قاله أبي تحقّق بالفعل إلا واحد. أدخلتني وعوده في قناعة ساذج رغم أنّها كانت هشّة. تناولت الحزام البُني الذي كان مرفقاً للبدلة فمرّرته من بين حلقات البنطلون فأحكمته، لكنه انكمش على نفسه فتطبّق. بدت أمّي مؤيّدة لكلام أبي مع شيء من التحفّظ، فبان على وجهها لمّا لمستْ في كلامه من كناية مبطّنة. كعادته انتبه أبي إلى خطورة كلامه والشحنة المكهربة التي يحملها، فرمّم الموقف بعبارة أخرى لا تخلو من التزويق:

– الله يرزق عامر ويطوّل عمره

أخي حامد الذي يكبرني بخمس سنوات، كان أقل اكتراثاً بمظاهر العيد أو لعلّني كنت أراه هكذا. يعثر أبي على الموجة، فيغزو البيت صوت طالما طرب له أبي:

– ميحانه ميحانه... غابت شمسنا الحلو ما جاااانا.حيّك...حيّك بابا حيّك...

اكتفى بالدشداشة التي كان قد خاطها لنفسه قبل شهر من وصول چسوة العيد من الكويت. لا يوجد ما يرتبط بأجواء العيد إلا وزجّه خالي عامر في الجنطة الكبيرة التي وصلتنا قبل أيام. كان مقيماً هناك منذ أكثر من عشر سنوات، يزورنا بين فترة وفترة وقد تطول لسنوات. المرة الأخيرة استقبلناه أنا وأبي في مطار عبّادان. دخول المطار كانت تجربة جديدة بالنسبة لي؛ لأول مرة أرى طائرة عن قرب. عبرنا البوّابة

الكبيرة للمطار والتي تعلوها لافتة كبيرة "فرودگاه آبادان". ألف كالسيف مصقول ذو قبّعة، يقطع دابر الماضي ليتراجع من فوّهة الألسن نحو متاهات لأفكار.
أحذية، دِشاديش، مَبخرة، دهن العود، وساعة سيكو اليدوية والأهم بدلة الجينز الزرقاء التي طلبتها منه عبر رسالة بريدية. كانت أول رسالة أخطّها بيدي تكتظّ بالأخطاء كما عرفت ذلك فيما بعد من ضحكات خالي وتعليقاته التي تهادت إلى مسمعي من سمّاعة تلفون الهندل[١]. ما أن دخل تلفون الهندل بيتنا حتى غمرتنا فرحة عارمة، فرُحنا نتّصل ببعض الأرقام دون مناسبة ولمجرد تبشير الآخرين بالحدث وكان بيت خالي من المتصدّرين في القائمة. رافقته حين استلمها من محل خياطة العم هاشم. بدا أنيقاً حين اِرتدى دشداشة البزما[٢]. كان واحداً من القلائل الذين قد حصلوا على دبلوم الرياضيات في الخفاجية آنذاك، وزّعت أمي الحلويات بعد ما غمرت زغاريدها البيت. طويل بملامح هادئة، وبشرة تميل إلى السُمرة وشعر ناعم يغطي الأذنين، يشبه خالى إلى حدّ كبير؛ هذا ما كانت تؤكّده أمي حين تقول في اعتزاز *ثلثين الولد عله خالا* . وسامته التي أضفت عليه هيبة جعلت بعض بنات العم يتردّدن على بيتنا لسبب ودون سبب، والبعض الآخر منهنَّ لم يخفين إعجابهنَّ به، فكانت تصدر منهنَّ بعض التصرفات والإمارات عرفت حين كبرت إنَّها الإعجاب؛ أمّا ابنة خالي فكانت قد طلبت من أمي صورته. لو كنا كبعض شعوب العالم التي تطلب البنت يد الولد، لما تردّدن في ذلك. كان أبي يعتمد عليه في بعض أموره، ويستشيره أحياناً، لما يرى فيه من رصانة وصواب الرأي. حنان كانت لها حصة الأسد: ثلاث بدلات جميلة، وحقيبة يد بيضاء، وحذاء جميل. حين ألبستها أمي ذلك الفستان الأبيض بدت كدمية جميلة متورّدة الخدين.

---

١ – جهاز تلفون قديم دون لوحة أو قرص للأرقام، يعمل بتدوير الهندل، لتتصل عبر السنترال بالجهة التي تريد.

٢ – نوع من الدشاديش، لكُميه أزرار كما للقميص

لم يغمض لي جفن إلا سويعات قُبيل الفجر. كالعادة ستمدُّ أمي صباحاً في الديوانية مائدة العيد المترعة بالأفراح والنعمة، يطوف حولها الأهل أولاً فتلتحق بهم أبناء العُمومة، ثمَّ يزورها الأقارب والجيران. حلويات ومكسّرات من مختلف الصنوف وعصير السنكويك بطعم البرتقال وبخور يطيّب البيت شذاه؛ والمشبوش تتكفّل هي عادة بتوزيعه على الأطفال المعايدين عند عتبة الباب. المصحف في الوسط يزيّن المائدة. سيجتمع الأطفال غداً وعلى طريقتهم الخاصة، يعايدون الجيران بيتاً بيتاً. ستنضّم إليهم حنان لأول مرّة؛ يجمعون المشبوش والحلويات في أكياس صغيرة ملوّنة. ضحكاتهم البريئة تضاعف العيد بهجةً، وقفزاتهم المشاغبة في الهواء تزيد ملابسهم الملونة ألقاً. وجوههم التي تنضح بالأفراح تحاكي أزياءهم المزركشة، التي تعزف سمفونية الألوان في أقواس قزح قلوبهم الصغيرة. يتفنّن أبي في تجهيز القهوة، الفحم والجمر وألسن اللّهب على موعد مع الدلال. النكهة المرّة التي تُخفي بداخلها ألذَّ النكهات في العالم، سيتكفّل حامد بتقديمها للمعايدين. أحب طعمها لكن رائحتها أكثر.

عيناي مسمّرتان نحو النافذة، تترصدان انزياح الغبَش. المارد الأزرق المتسلّل من المصباح السحري جعلني أحتار بين أمنيتين لاأعرف أيّهما أختار؟ أن يأتي الصباح مسرعاً متأبطاً العيد، أو أن تطول تلك الليلة كي أكبر فيها بالقدر اللازم؟ قال أبي سوف تكبر. هل عليَّ أن أبذل جهداً ما لكي أكبر؟ أم أن الكبر قادم من تلقاء نفسه، كما أنَّ الصبح قادم وكما أنَّ هناك أشياء كثيرة قادمة لا محاله؟

رضخت أمي لإصراري الطفولي، فتركت بدلة الجينز عند رأسي دون أن تضعها في الدولاب كالعادة حتى الصباح. سحر الوعود مازال يعتمل في داخلي.

– *راح تكبر بسرعه... بسرعة...بسرعة.*

تكتكة الساعة الرابضة على جدار الغرفة تزوّد ذلك السحر بشحنات إضافية. ليتني استطيع أن أدفع عقاربها إلى الأمام. لأكثر من مرة جربت أن أضخ الهواء في بطني

لعلني أكبر بسرعة، فعلت ذلك بعد ما نام الجميع، حيث خرجت إلى ساحة البيت خلسة متأبطاً بدلتي الجينز. تحت الضوء الباهت الذي ترشّه اللمبة الصغيرة المتدلّية من تحت الطارمة الخارجية بقليل، شفطت كماً كبيراً من الهواء فحبسته بداخلي؛ شعرت بأنني كبرت. لبست البنطلون دون حزام ثمَّ الجاكيتة. تمالكتني فرحة عارمة، حتى نسيت أن أتنفّس. كان البنطلون مقاسي تماماً.

– يا الهي... كبرتُ ...!!! كم البدلة جميلة !!! كأنني من أبطال أفلام الكابوي.

لم أكن أتوقع أن أكبر بهذه السرعة، لكنني شعرت بالاختناق. كادت تخرج روحي من عينيَّ؛ اِغتمَّ بصري. رغم إرادتي وفي لهاث زفرت بقوة الهواء المحبوس زفرة واحدة، حتى سقط البنطلون. يضحك المارد الأزرق في سرّه وهو يعود إلى قمقمه زاهياً بنفسه. طارت الفرحة من رأسي. شعرت وكأنها حطّت بالقرب مني تضحك على ما حدث. لم يكذب أبي حين قال لي بأنني سوف أكبر، لكنه لم يقل لي بأنني سأصغر بهذه السرعة من جديد، فالآباء يعلمون ما لانعلمه؛ يعلمون أنَّ الصغار سوف تكبر، كما يعلمون أنَّ الكبار سوف تصغر أحياناً، عندما تحيط بهم ظروف حرجة خارجة عن إرادتهم؛ هم أعلم منا بحال الدنيا وحقيقتها. يصغرون حدَّ التقزّم أحياناً ،بل يصل بهم الصغر حدَّ الانمحاء عن الوجود.

-٢-

بُعيد الفجر وتحت سماء صافية فضية ما زالت النجوم تحتفظ بشيء من بريقها، شرعت الشمس في الاعتلاء رويداً رويداً، فنشرت خيوطها الذهبية فوق أرجاء الخفاجيّة لتدبَّ الحياة في وريدها من جديد. استعادت السنابل لونها الذهبي، ورفرفت أجنحة النوارس بزهو فوق مياه الكرخة، فاستعار وجهها الفضي لون الشمس الذهبي، وتألَّق سعف النخيل المطلِّ على جانبيها في جلال وبهاء. علت زقزقة العصافير استعداداً للملمة أرزاقها من بين بقايا حبوب المزارع المتروكة على الأرض هنا وهناك ومحاصيل البساتين.

دَويُّ رتل من الدبّابات والقِطع العسكرية الذي كان يشقُّ طريقه في وسط المدينة، أيقظها بطريقته الاستفزازية. حلَّ الضّيف عليها دون موعد مسبق، حيث كانت الخفاجيّة قد نامت كعادتها متدثّرة بوشاح الكرخة الأزرق الألق، بعد ما أسندت رأسها على *تلال مشداخ* برماله الدافئة، وقد قضت يوماً كادحاً آخر. يسير الرتل بموازاة الكرخة إلا إنها في التواءات، توزّع كرمها العربي على هذا وذاك، فلا تُبقي موضعاً إلا وأروته،

ولاجائعاً إلا وأشبعته. تسير قبل أن تأتي الأرتال والعساكر والجيوش وقبل أن تُمصّر الأمصار، فمن طين قاعها خُلق الصِلصال. في نشاط دؤوب ووفاء معهود ينتهي بها المطاف إلى *هور العظيم* ، لتتّخذ ماءه حبراً، وأوراق قصبه دفتراً، لتُعيد كتابة الأساطير من جديد؛ بل لتكتب أساطير رجال من دم ولحم، صاروا كآلهة الأساطير الرافدينية في فجر الحضارات الأولى.

كانت تلك الصباحية ما زالت رطبة بشبق تثاؤبات ليلية. تزحف الجنازير على الأسفلت ببطء، فتترك فيه أثراً خفيفاً وسطآصرير فولاذي خشن. في تلك الليلة كنتُ قد بتُ في بيتي الذي كان قيد الإنشاء في ضواحي المدينة، أحرس معدّات البناء. بيت في طابقين، وقد كلّفني المبالغ الكثيرة، و كان في المراحل الأخيره من إنشائه. كان الوقت بداية صيف والصيف عندنا أكثر الفصول شبقاً لنحت الأحداث على جدار المفاجآت؛ مفاجآت تتزاوج فيما بينها فتصبح حبلى بمفاجآت أخرى ترسم تفاصيل الحياة أدقّ من الحياة نفسها، ممّا تجعلنا في ذهول. حين مرَّ الرتل العسكري من أمام البيت ارتجّت له الأرض قليلا ،فاستيقظتُ واثباً من نومتي الخفيفة لأجدني أخرج مهرولا نحو الشارع أحملُ في عيني فزع الاستغراب الممزوج بالنعاس وفي فمي نبرة الاستيضاح. مدرعات ومدافع ودبابات وجنود بكامل المعدّات وأعلام صغيرة ترفرف على رأس ساريات من فوقها.

يا الهي ... ما الذي أراه؟ هل هذه مناورات عسكرية؟ أم ماذا؟

تذكرتُ تلك المشاهد التي قد بثّها التلفزيون الإيراني حين إنضمَّ الجيش إلى الجماهير معلناً عن تأييده للثورة الإسلامية وولائه لها واصطفافه مع الشعب خلف القيادة وذلك بعد شهور من المواجهات الدامية التي راح ضحيتها العديد من الشباب. كنت قد شاهدت البعض يتسلّق ظهور الدبابات ليُعرب عن فرحته العارمة لانتصار الثورة والبعض الآخر من الناس من استقبل الجنود بالزهور والرياحين تشجيعاً لتنازل الجيش عن موقفه الموالي للشاه ومساندته الثورة لينتهي بذلك فصل دام من فصول تاريخ البلاد.

يشبه هذا المشهد كان قد حصل بالفعل هنا في الخفاجيّة التي أرغب أن أسميها من الآن فصاعداً مدينة الطين. صعد بعض الشباب ومن ضمنهم حامد ابني البكر على ظهر إحدى تلك الدبّابات التي كانت قد استقرّت في الدوار الرئيس بوسط المدينة معلنة امتثالها للثورة وموالاتها لها و في محاولة لاستتباب الأمن وبسط سلطة القانون من جديد. كانوا يلوّحون بأيديهم إلى الحشود من الناس رافعين إصبعي السبابة والوسطى على شكل حرف V بينما الأخرى مضمومة كعلامة النصر.

هل ما زالت تلك الكرنفالات والاحتفالات قائمة رغم مضي ما يقارب السنتين من انتصار الثورة؟ لكن لماذا خارج المدينة؟

أين أنت يا بُني حامد؟ ياترى هل تُدَرّب الآن على قيادة الدبّابات؟ أم على المدفعية؟ لكنك مازلت حديث الالتحاق بالخدمة العسكرية. لم يمض من أشهر التدريب إلا شهر واحد.

على مقربة من البيت توقّف الرتل العسكري. الجيب الأمريكي بسقفه المفتوح كان في المقدمة، فترجّل منه ثلاثة ضبّاط، تقدّم نحوي واحد منهم وكان في عمري في الأربعينيات تقريباً، حليق الذقن ببشرة صافية، مهندم أنيق، بحذاء لامع وقبعة تظلّل على نظارته الشمسية ذات الحواف الذهبية والتي تُخفي عينيه خلفها. تصطف على جانبي بدلته العسكرية الأنيقة ثلاث نجوم ذهبية؛ يخطف بريقها البصر. لا أعرف حينذاك إلى ماذا تشير تلك النجمات من مرتبة أو موقع عسكري. هل هو قائد الجيش؟ أو مساعده؟ لا أعلم. هل... ؟ هذا لا يهم. ما شأني بتلك الدرجات والرتب؟ لكن من الواضح أنَّ الزي العسكري قد أضفى على ذلك الرجل الذي عرفت فيما بعد من الأفضل أن أخاطبه بـ العقيد، هنداماً ممشوقاً أنيقاً، فبدا وكأنه من ممثلي أفلام السينما. غريب هو أمر السينما، نصدّقها رغم أنها كاذبة بينما نكذّب العساكر رغم أنهم صادقون أحياناً. لمَ نحب السينما رغم أنها كاذبة لكن... ألأنَّ كذبها لا يجلب لنا ضررا؟ أهناك فرق بين كذب وكذب آخر؟

ما أن نزل من الجيب حتى ألقى بعينين فاحصتين مسحاً دائرياً على المكان ومن خلف نظارته الشمسية وملامح وجه يبدو وكأنه غير مكترث بما يراه. تردّد في ما كان يطلبه لكنه سرعان ما أيقن بأنني الشخص الوحيد الذي يمكن أن يستفسر منه. حاولت أن أخمّن ما يريده مني وما الذي يمكنني أن أقدمه له ولجيش عرمرم يستعرض أمامي عضلاته المفتولة. فشلت لأكثر من مرة. تراجعت عن التخمين وإرهاق رأسي بالاحتمالات. كفاني إنني لم أنم الليلة البارحة إلا بعض دقائق منها.

– الحويزة.... أهذا هو الطريق المؤدي إليها؟ (قالها الضابط بزهو وثقة)

وجدتُني أدير رأسي إلى الخلف ثم اليمين واليسار... هل يخاطبني أم يخاطب غيري؟ لكن لا أحد غيري!

– نعم... من هنا... مباشرة (قلتها بشيء من التلعثم)

سلّط بصره نحو الجهة التي أشرتُ إليها فمكث لثوان يحدّق فيها ثمَّ التفت نحو الرتل المرافق له، فعاد أدراجه بخطى واثقة. وقف ثانية هناك، فأدار وجهه نحوي للمرّة الثانية بعد ما فتح باب الجيب، وكأنني قد استفسرت منه سبب هذا الحضور الاستعراضي المفاجيء أو غاية هذا السؤال الغامض:

– إنها ... الحرب ....هي قادمة ... نستعد لها.

ثمَّ وضع يمناه على خاصرته. بدا لي معتدّاً واثقاً بنفسه، وهو ينظر نحو الطريق المؤدي نحو الحويزة:

– لن تطول إن بدأت .... يوم واحد فقط ... سنسحقهم ونلقنهم درساً لن ينسوه مدى الحياة. سيسقطون خلال يوم واحد. نحن الأقوى. ترسانتنا العسكرية رهيبة . مازال جيشنا من أقوى الجيوش في العالم.

لم أفهم القصد من كلامه. ولا أعلم لمَ يخاطبني أنا بالذات؟

أردت أن أوجّه إليه سؤالا بل أسئلة، استفسر عمّا كان يقصده، لكنني... تراجعت. لاأعلم لماذا؟ ربّما بسبب تقزّمي أمام سطوة جيشه، أو ربّما ثقته واعتداده بنفسه، أو ربّما بهاء هندامه، فوجهته إلى نفسي بعد ما تشظّى إلى أسئلة عدّة:

– الحرب...؟ ولمَ هي قادمة؟ وإلى أين قادمة؟ ومن هم الذين سنسحقهم؟ ما معنى السحق أساساً؟ هل معناه الموت؟

من الصعب أحياناً أن يدرك المرء حقيقة ما يقوله العسكريون، لاسيما إن كانوا من كبار الضّباط في الجيش وقادته، لا أعرف من الجيوش سوى البدلات الزيتونية الأنيقة والاستعراضات البهلوانية في المناسبات والسلاح اللامع. رغم أني لم أفهم حينها ما قاله العقيد إلا أنني أحسست في خطابه حين قال "سنسحقهم" بشحنة من الغيرة والانحياز تتسرّب في داخلي. شعور لذيذ بدأت أجربه. نكهة لذيذة انسلّت من هذه المفردة، فتسرّبت في عظامي، وكأنني أنا الذي سيحارب وسيسحق. رُحت أبحث عن دوري عبر تهويمات جنونية في صراع سيدور بين الـ "نا" و الـ "هم"، فألصقت نفسي بالـ "نا" ذلك إنها قريبة مني أو كنت أشعر بها هكذا. رحت أنفخ ريشي أتلذّذ بهذا السحق المفاجيء السريع الذي سيحدث قريباً والذي سأغرف شيئاً من سعراته الحرارية فانتشي به أيما انتشاء. لكن حامد أقرب مني إلى هذا الشعور الجميل فهو الجندي الذي سيدافع عن الوطن. سينتهي من التدريب وسيسبقني في تملك هذا الإحساس الجميل. لكن...هل علي أن أغتبطه على نيله هذه الفرصة؟

بعد أيام لاحت في الأفق ملامح تلك التي أسماها العقيد "الحرب". قامت الحرب بالفعل وفي موعدها، كما تنبأ بها العقيد بالضبط. لكن مالي أراها تحمل ملامح أخرى غير التي كان العقيد قد وصفها بها وكأنها متنكرة بقناع ما؟ ملامح لاتمت بصلة لما رسمه العقيد في تلك الصباحية؟

أصوات المدافع ودوي الطائرات بدا مسموعاً، فيقترب نحو المدينة قادماً من صوب الحدود. الجنود المحمّلون بالحماس الذين ذهبوا يوم أمس عاد قسم منهم محملا بالجروح

وقسم آخر أكوام لحم بشري. كانت تحملهم ظهور العجلات، تقذف بهم في مستشفى المدينة أو تتّجه بهم نحو الأهواز بعد ما ضاق بهم المكان. بدأ الخوف يتسرّب فينا. أدقّق في وجوههم واحداً واحداً. لكن لا... حامد... مازال في فترة التدريب. قال العقيد إنها لن تطول . من المؤكّد أن الحرب ستنتهي قبل أنْ يُكمل حامد دورته التدريبية فهي ستدوم لأشهر. في رسالة كانت الأولى لم يشر حامد إلى ما يثير القلق. شُحة في المواد الغذائية وارتفاع ملحوظ في الأسعار. دخان أسود يحجب الشمس فتغطُّ المدينة في ليل بعد ليل. شحوب مخيم في الطرقات، ينفث في وجوه الناس ريحاً أصفر وأحاديث مضطربة هنا وهناك تفتك بهدوء الحياة.

بدا وجهها قاتماً بأنياب حادة ومخالب رهيبة، تقطر دماً وموتاً. أراها تهبّت كريح صفراء قد إصفرَّ على إثرها كل شيء. شاختْ نوارس الكرخة. تراخت مفاصلها فدقّت عظامها فبدت عاجزة عن التحليق. تنسّكت العصافير السكوت فكفّت عن الزقزقة. ماتت السنابل وذبلت الشمس فانزوت في زاوية بعيدة.

أليس الأمر غريبا؟ كان العقيد قد رسمها لي بأبهى صورتها. كفتاة ريفية شقراء، بثياب زاهية ، بشعر فاحم مسدول يعلو الكتفين، ينحدر نحو صدر مفعم بالحيوية والارتجاج وعينين واسعتين تعلوان وجنتين ورديتين ما جعلني أتمنّى كي تعجّل تلك الحرب في قيامها.

بعثنا برسالة حسب العنوان المدرج على ظهر رسالته، ثمَّ أردفناها بأخرى و لا رد من حامد. أليست هي التي كنا نراها على شاشة التلفزيون؟ كنتُ أظن إنها تُشبه مواجهات أفلام الفسترن التي يتفرّج عليها الشباب في السينما، يشربون العصير ويقضمون المكسّرات، أو تُشبه الأفلام الهندية التي يقف فيها البطل المدجج بالسلاح أمام أعدائه غير مكترث بهم، فيضغط على الزِناد، فينهمر من فوّهة رشاشه وابل من الرصاص تسقط على إثره العشرات من الرجال، وهو مبتسم ثمَّ ينفث دخان سيجارته والمتفرجون في الصالة يتصاعد تصفيقهم وبعد لحظات يظهر في البار يملأ جوفه من النبيذ الأحمر وهو

يلهو مع بعض فتيات الهوى. كنت أظن إن الحرب أمر آخر لاعلاقة له بالموت والتشرّد والجوع، فالموت فيها ينطوي ضمن فنون الحيل والخداع البصري السينمائي والذي يتمرّن على ممارسته الممثلون والسينمائيون. كنت أردّد في نفسي إن الحرب وإن أتت فهي قادمة من الفضاء وإن البشر لا يقتلون بعضهم البعض، كما كان يظنها الشيبة من أهل مدينة الطين، فهي عندهم مجرد رحلة "گنص" قصيرة تُصطاد فيها الحباري، لا وجود فيها للصقور، الحباري والحباري ... الحباري فقط.

لمْ أشك حينها ولو للحظة في أن العقيد المهندم كان صادقاً فيما يقول وأننا سنسحق الـ "هم" فننتصر في اليوم الأول من الحرب لكن يا ترى هل كان يعلم العقيد إن الآخر قد طوّر نفسه أيضاً فصار مطاطياً يتمدّد ويتدحرج ويتقافز كيفما يريد؟ فهو يظهر في الطرف الآخر بنفس الحالة التي كان عليها سابقاً بمجرد أن يقع تحت أقدامنا، فندوس عليه كما إن العقيد لمْ يكن على علم بمسالك الطريق ومعالمه فسألني عنه:

– الحويزة.... أهذا هو الطريق المؤدي إليها؟

بقيت عيناي لفترة – أدركت إنها كانت طويلة فيما بعد– تتابعان العمود الممتد للرتل العسكري وهو يبتعد في طريقه نحو الحويزة ليسلك طريقه نحو الحدود، حتى اختفى شيئاً فشيئاً. لقد قررنا أن نخوض حرباً لابد وأن ننتصر فيها. الكلُّ يسعى إلى تحقيق أحلامه. هل كان العقيد يحلم؟ وإن كان يحلم فما الضير في ذلك؟ إنه يحلم حلم أمة. هل الحلم مذموم يشين صاحبه؟

كالطفل شعرت أن أحلام اليقظة تمورُ في داخلي، فسلمتُ نفسي لتلك المشاعر. أجلس في الجيب خلف العقيد، وأنا أرتدي البذلة العسكرية الأنيقة . نجمات تزهو على جانبي بدلتي. نظارة شمسية تظلّل على عينيّ. نمرُّ من بين حشود غفيرة من الجنود والضباط. ترفع الحشود اليد اليمنى فتلقي عليَّ التحية العسكرية وأنا جالس باعتزاز وقد نفخت ريشي غير مكترث بهم ... آه...حزنت لأنني لن أشارك في هذا الانتصار...

ليتني كنت ضابطاً ولو ليوم واحد حين تقوم تلك الحرب لأقدم مساهمتي بفخر واعتزاز. ليوم واحد كما حدّده العقيد.

اهتزَّ الجيب يميناً ويساراً. أظنها مطبّات، فالطرق عندنا وعرة كثيرة المطبّات. أنظر نحو الأسفل. لم أر إلا رجليَّ، إذ كنتُ حافي القدمين؛ لاحذاء عسكري لامع ولابنطلون زيتوني. أتحسّس المسدس على يميني فلم أجده والنجمات أمرّر أصابعي، فلا أثر لها. ما زالت المطبّات فاعلة. انتشلني الاهتزاز من طقوس العسكر. امتدت يد من الخلف فاستلتني من مقعدي الأمامي في الجيب:

-وينك ابوحامد ؟ شمالك اليوم؟ تعال فك الباب.

صوت الأسطا الأجش، في لوثة يعكّر صفوي ونشوتي، فركت عينيّ. يا الهي... ماذا حدث؟ لكن... رغم ذلك كانت تجربة لذيذة في دقائق بسيطة يثيرها الشعور بالنشوة والانتصار. حب القوّة والسلطة في الجينات ينمو في دم البشر وجذوره. وما الحروب إلا زهور سامّة، تنمو من حب القوة والسلطة، لتفتك بآلاف البشر.

-٣-

ها أنا الآن قد كبرت، ليس لأن السنين مضت فلم أعد طفلا، وليس لأن البنطلون صار مقاسي، وليس لأن الغَبش قد زال فانفلق الصباح من رحم العتمة، وليس لأنني عرفت السرَّ لكثرة تلك الجيوب في بدلة الجينز وأنها تكثر لتحتفظ بـ العيديات، وليس لأن الأخطاء في كتابتي قلّت فصارت غير ملموسة؛ فالغَبش قد عاد أدراجه من جديد يحاصرنا كالشبح المخيف في تلك الخربة وفي مدينة مثقلة بالأوجاع، والبنطلون صار ضيقاً بفعل وحش الزمن، فتشقّقت ركبتاه؛ بل لأنني عرفت أن كثرة الجيوب ليست إلا لترقيع ركبتي البنطلون المتشققتين، ولأنني عرفت كيف أعالج جيوبي المتخمة بالفراغ. أن ألقم بقبضتين مكورتين هاتين المغارتين المحشوتين بالخواء واللتين تصفر فيهما ريح هوجاء، لتتصنعا الشبع حد التخمة.
ألقمهما كي أخدع نفسي قبل أن أخدعهما. جميل أن تخدع نفسك أحياناً. أخفّض مستوى الشعور بالغربة وألتف على الواقع الملتف حولي، أخدّره ، أتحاشاه،

بتفاهة ، ببلاهة. أن أكون تافها في عالم تافه. واقع تتكاثر تفاهاته كالجراد. أفضل من أن يخدعني الآخرون. خدعَ الضابطُ أبي حين أخبره إنها لن تطول أكثر من يوم واحد وإن في هذا اليوم سوف نسحقهم. خدعنا أبي حين أوصانا ألا نجلب معنا شيئاً من البيت وأن لانحمل معنا سوى المفاتيح وإننا عائدون قريباً. خدعنا حامد حين قال إن خدمته العسكرية ستمرُّ كالبرق الخاطف وإنه سيبعث برسائل يطمئننا. ها هو الآن مجهول المصير لانعرف عنه شيئاً. أمي المسكينة تترقّب قدومه على أحر من الجمر . لا خبر ولا رسالة . سأظل أمارس خداعي لنفسي فهو السبيل الوحيد الذي يجلب لي السكينة والهدوء. ماتت رغبة تصديق الوعود بداخلي فحلت هذه الرغبة مكانها. إذا نجحت نجحت وإذا فشلت فشلت. عرفت إن الخداع والمراوغة بطولة تستحق النياشين والأوسمة. كلّما خادعت وراوغت، علوت و برزت. لابأس به أن تحمل على صدرك بعض الأوسمة. ستسمو بك وترفعك فوق الغيوم، فوق الثريا فتصغر في عينيك تفاهات العالم حد الانمحاء، فلا ترى من الدنيا إلا كما يحلو لك أن تراه. لكن المعدة أمرها يختلف تماماً، كما قال أبي حين سمعته يناجي نفسه في عتمة تلك الخربة بعد ما ردّد موالا حزينا:

– حديث المعدة الخاوية أمر مختلف. بيت العواء، لا تُخدع أبداً. ذئابها الجائعة على مستوى خارق من الدهاء. ها أنا اليوم ككل يوم في هذه المدينة الخاوية الضاربة في الجبال أودُّ أن أقتلع جيوبي كي أخرس أصوات الجوع المتصاعدة من جوفها وتارة أضغط على أسنان تصطفُّ خلف شفتين مُطبقتين كي أهشّم أضلع الغربة المتمدّدة بداخلي. ها أنا أسمع تلك الذئاب، عواءها يتسربل من أنسجة تلك المعدة المتخمة بالجوع ليأخذ طريقه نحو جيوبي الخاوية. العين قد تُخدع بالمظاهر، بالألوان، بالمساحيق، بالاكسسوارات، فتنسى ما هي عليه والأذن بمفاتن الأصوات الرخوة الناعمة فتذوب في اللاوعي وأما المعدة... فلا.

– ٤ –

كان المخيّم محطتنا الأولى وقد وصلناه ليلا. كانوا قد نصبوا فيه خياما في العراء عند سفح جبل، تحيط بها غابة من الحجارة القاتمة ، يتسرّب من تحت أرضها وخز الصقيع ومن فوقها ريح معربدة، تتلاعب بالخيام فتكاد تقتلعها من الجذور. نمرُّ من بين أطناب الخيام المتداخلة، خيمة تلو الخيمة. بصعوبة عثرنا على خيمة من بين المئات فيها فسحة من الفراغ، لتأوينا حتى الصباح. والصباح رباح ... ربما رباح. تبرز الرغبة الملحّة بداخلي في تصديق الوعود. أتنتهي الحرب في الصباح؟ عند باب الخيام أحذية كثيرة، لاصوت يخرج منها إلا صوت الصقيع وأصوات اصطكاك الأسنان. الظلام الملتف حولها قد تسرّب فيها، فضوء الفانوس الخافت لا ينير إلا هالة قد التصقت به خوفاً من الظلام نفسه. تزيح الريح طرف الخيمة المسدل. أدقّق فأرى في ظلامها أناساً يجلسون الإقعاء متجمدين. يشبهون الحجر الملتف من حولهم، البعض منهم دفن رأسه بين الركبتين اللتين

تحتويهما الأذرعان؛ والبعض الآخر ملتفّ في بطانية لاتظهر من بين طياتها إلا عيونه التي تلمع لمعاناً خافتاً في الظلام. كانوا متلاصقين ببعض تحسبهم كتلة واحدة؛ يشبهون جثة جدي حين مات، إلا أنه كان ممدداً وهم في إقعاء. ياترى هل سنتجمّد مثلهم؟ أتعثّر ببعض الحجارة كما يتعثّر بعض من معي.

انتهت فترة التدريب فسمحوا لنا بزيارة قصيرة لأسرنا وذلك قبل توزيعنا على القواطع. خرجت من المعسكر وكان قد تعرّض تواً لقصف جوي لأكثر من مرة. كلّما اقتربت نحو الأهواز اتّضحت لي ملامح الحرب أكثر فأكثر. طوابير من النازحين. جنود تقدح أعينهم حماساً وآخرون فارين من الجحيم. استوقفتني عناصر من الجيش عند بوابة مدينة الطين. شفعت لي بذلتي العسكرية وبطاقة الجندية، أحملها في جيبي دائما. كان الدخول صعباً والخروج أصعب. كأنما المدينة قد نزعت جلدها؛ جنود ومدرعات ومدافع تُحقن في وريدها؛ بيوت تخلو من سكانها. سماء يتصاعد نحوها دخان تتجشأ به المدافع. كان بيتنا مقفلا، فدخلت ساحته متسلقاً الجدار. لامظاهر للحياة هناك؛ شجرة التوت في الحديقة الأمامية مصفرّة ذابلة. أمّا النخلتان فما زالتا خضراوين.

عند مدخل المخيم كشك صغير وهو مكتب لإدارته. أرضيات الخيام مفروشة بالكونكريت . تقوم هياكلها على عارضات تستند على عمودين معدنيين. لونها القاتم يحاكي قتامة الصخور المنتشرة في سفح ذلك الجبل. زجونا في إحداها. زواياها الأربع مثبتة بأوتاد فولاذية والجوانب بأحجار كبيرة من تلك الصخور. الضوء الخافت للفانوس الصغير المتدلي من سقفها يتعثّر خارج القفص الزجاجي. مدفئة علاءالدين التي بدت خجولة أمام غزو جيوش البرد المتهجّم، لم نشعر بدفئها إلا بعدما لامست أصابعنا المتجمّدة أسطوانتها. دورات المياه تقع على بعد عشرات الأمتار. لاإضاءة فيها إلا ضوء القمر الخجول. بطانيات رمادية تؤدّي دور الأبواب وقد تجمدّت أيضاً حتى صارت كقطع من الصفيح. المياه هي الأخرى شبه متجمّدة في الخزّان المعدني المخصّص لدورات المياه. بدا لنا الجبل كبقايا هيكل تنين أسطوري. علمتنا تلك الليلة أن سوط البرد لا

يكون أقل إيلاماً من صفعة الحر كما علمتنا كيف نتجمّد حتى الصباح فنموت ثم نعود للحياة ...في صمت ...عرفنا هناك إن المخيمات تعني العتمة والبرد و أن يتسلل إليك الموت حتى الصباح.

في الصباح الباكر فتحت جفنيَّ على نشيج أمي. كان أبي صامتاً، جالساً القرفصاء وقد وضع رأسه بين يديه. بدا وجهه قاتماً حين رفعه للحظات. لأول مرة أراه هكذا. كل الوجوه كانت هكذا، فشل وندم. لا أدرى على ماذا بالتحديد؟ ألأننا لم نجلب معنا ملابس؟ أم لأننا تركنا المدينة؟ أم لأنهما تذكرا حامداً والغموض الذي يحيط به؟ أم لأننا ...؟ اقتحم أبي مديرية الخيام غاضباً محتجّاً على الوضع احتجاجاً بلغ حد التلاسن. سمحوا له بعد إصراره بإجراء مكالمة هاتفية لم يرد عليها الطرف المقابل. حيث اتصل بصديق له يسكن إحدى مدن الحجر. بعد ساعات تركنا المخيّم إلى جهة مجهولة. *بس خل نشرد من هذا السجن*. في الساعات الأولى من الليلة التالية وصلنا إلى مفارز مدينة الحجر. كانت تقوم على منحدرات ومرتفعات؛ تذكّرت لعبة السلّم والثعبان التي كانت تشكّل مساحة واسعة من طفولتي. لاوسطية هناك؛ إما الثعبان فيلدغك فتقع في الدرك الأسفل فلن تنهض إلا وترى الطرف المنافس على وشك الفوز؛ وإما السلّم فيرفعك فتبلغ عِلّيين. تذكرتُ مدينتنا الطينية حيث تستوي أرجاءها فترى آخرها كما ترى أولها. ما أطيب الطين، فهو مرن متساوي الطبع.

كانت المدرسة بطوابقها الثلاث قيد الإنشاء، تقع عند مدخل مدينة الحجر. كانوا قد كدّسوا في الصف الواحد من صفوفها أكثر من عائلتين، لا يحجزها عن بعضها إلا ستائر قد أقاموها بينهم من البطانيات مثبتة على رؤوس أعمدة خشبية قصيرة، مغروسة في علب من التنك. أقفاص وزنازين، هي المأكل والمشرب والمنام وأما الفراش فكان عليهم أن يبتكروا طرقاً مناسبة له. اكتشفتُ بعضها بالصدفة. الحاجة أم الاختراع. في أنصاف الليالي ضبطت ذات مرة وأنا خارج للتبوّل زوجاً يمارس طقوسه في دورات المياه وآخر يخرج من تحت السلالم، يتحسّس سَحّاب بنطلونه ثمَّ تخرج صاحبته بعد لحظات

ملتفة بعبائتها. غضب أبي حين أخبرته بذلك ونصحني بأن لا أتجسس على الناس. رغم ذلك لم أفهم سبب غضبه. هل كان من المتضررين لهذا الاكتشاف؟

حصّة الواحد منهم عند النوم تعادل القبر أو أكثر بقليل. المرافق ودورات المياه تزدحم على أبوابها العشرات وقد يضطرُّ الواحد منهم قضاء حاجته في الساحة المقابله للمدرسة. ذات مرّة لاحظت عجوزاً يأخذ بقاروة ماء ويخرج نحو الساحة الخارجية للمدرسة فيلوذ بين الأشجار بعد ما شعر بكارثة تحدق به. لاتبييض ولاكهرياء أما المياه فحكر على دورات المياه. عند الظهيرة تتصاعد أصوات الفريمسات[1] النفطية. وششششش... لتنهمك في طبخ ما جادت به الدّولة من كرم. كيلوان من العدس وكيلوان من الفاصوليا وعلبة دُهن نباتي صغيرة وليتران من النفط وألفا ريال كانت حصة الواحد منا شهرياً.

– *حاضر*

مد أبي يده نحو جيب قميصه الأمامي ثمَّ بنطلونه، فلم يجدها. نظر نحونا كأنما يستفسرنا عن الهويات. سأل أمي ما إذا كانت تعلم بمكانها:

– *عندك بجيبك.*

حزن أبي كثيراً، فتحسّس جيوبه للمرة الثانية والثالثة في اضطراب. فتحنا الحقيبة أنا و أمي وفتشنا في محتوياتها بدقة، فلم نجد:

– *أظن الهويات طاحت منا بالدرب....*

قال إبن عمي ثامر الذي كان يقود الوانيت بنبرة مستغربة وكأنما اكتشف حلا للغز ما:

– *عمي... شفت بالمشوفا أوراگ طارت بالهوا ... بس لاهن؟*

علمنا إن هوياتنا قد انتزعها الطريق منا وكل الظن إنها وقعت تحت جنازر المدرعات والدبابات التي كانت تمرُّ من أمامنا مسرعة نحو المدينة. لكن هوية من التي ضاعت أولا؟ رقَّ ممثل هلال الأحمر لحالنا فتكرّم علينا بمنحنا خيمة وطلب منا نصبها في ساحة

---

١ – أصله بريموس وهو وسيلة قديمة لطبخ الطعام وتسخين الماء، تعمل على النفط.

المدرسة موقتاً ثمَّ قدَّم لنا خمس بطانيات رمادية، من تلك التي في الجيش. كان علينا الانتظار لبضعة أيام حتى يجد لنا مكاناً شاغراً هذا إن حصل. جلس خلف مكتبه وأخذ قلماً ليملأ الإستمارة:

-اسم اللاجئ ولقبه؟

صرنا "لاجئون". عنوان سيثير التقزّز عند المواطنين من مدينة الحجر ومدعاة للشفقة والإحسان عند القليل منهم.

خرجتُ من المدينة وقلبي منشطر إلى نصفين: نصف بقى عندها لا يريد الفراق، ونصف يطلب أهلي. راجعت بعض المخيّمات للنازحين هنا وهناك في مدينة الأهواز وما حولها، كانت تقصُّ بهم المخيمات. أتفرّس في الوجوه، أطفال بوجوه شاحبة فقدت البسمة قبل الآوان ونساء في ذهول وشيبة تنضح عيونهم الذعر. هذه الطفلة تشبه حنان ...لكنها ليست هي . لمحتُ رجُلا من بعيد يدخل خيمة ...إنه أبي ، اقتربت منه فناديته ... حين استدار عرفت إنه ليس أبي. علمت من أقوالهم إن أهلي كانوا بالأمس هنا. لا أحد يعرف إلى أين اتّجهوا. نصحني أحدهم قائلا:

- *لا تسأل عن المقصد. راحو وخلاص.*

وقال آخر:

- *بويه... الشارد من الحرب ما يدري وين يروح ... المهم يشرد وبس.*

الخيمة لا تتسع إلا للجلوس. اضطر أبي وعمي إلى المبيت خارجاً عند بابها تاركين المجال للنساء والأطفال. البرد اللاسع يتسرّب من الأسفلت فيخزّ أبداننا. عبثاً نحاول النوم. الدم ورائحة البارود وأزيز الرصاص وصفير القذائف مازال فاعلا وذل الغربة ووخز البرد زاد الطين بلّة. لا أظن إننا أغمضنا جفنا تلك الليلة. ودَّ الواحد منا لو كان وحيداً ليقطَّ في عويل جامح. كانت أمي ترتعد وقد احتضنت أختي حنان . أعلم إنها كانت تبكي في صمت حتى الصباح. لكن لا أعلم إن كانت تبكي حامداً؟ أم تبكي الضياع والغربة.

بعد فترة وحين استفحل البرد فتح ابن عمي ثامر باب الوانيت فلاذ الثلاث بالغمارة. بين حين وآخر تمدَّ أمي يدها نحوي لتتأكّد من إنني متدثّر بالبطانية:

- *يما حمودي تغطا زين.*

لا أظن إنني نمتُ تلك الليلة، ربّما بضع دقائق، أمّا أمي فلا. أيقظنا البرد القارس قبل أن تستيقظ الشمس من مهدها. سقف الوانيت مغطّى بالصقيع والچتري قطعة من الجليد. أجسام مُنهكة وآمال محطّمة. نزل أبي من الوانيت فأزاح فتحة الخيمة الملتصقة بالوانيت ليطمئن على سلامة الجميع.

– *الحمد لله.*

بعد ثلاثة أيام من المتابعة والمناطحة، نقلونا إلى غرفة صغيرة كانت مستودعاً في السابق. أرسلني أبي فجلبت بعض مقوى الكرتونات من أمام المحال القريبة، نستخدمها لتغطية شباك الغرفة التي لم يزوّد بالزجاج أساساً وعُلب كبيرة فارغة وبعض الأعمدة الخشبية القصيرة نقيم بها ساتراً عازلاً من البطانيات.

-٥-

لا أعلم ما إذا كان الآخرون نياماً؟ حرب برد صقيع تشرّد جوع غد مجهول. كيف النوم والوطن محموم؟ أيغمض الجفن والقلوب ترتجف خوفاً تارة وتحن إلى الوطن حدَّ البكاء تارة أخرى؟ أينام من كان غده مجهولا مخيفاً ؟ أنستطيع النوم والبرد قد حوّل الخيمة إلى قطعة جليد؟ لم يشفع لنا الحجر الذي ثبّتنا به حواف الخيمة من خارجها فللبرد ألف منفذ ومنفذ، يتسرّب من خلالها داعيك عن بابها الذي تتلاعب به هبّة نسيم بسيطة. أسلّم نفسي لإله النوم فلا يستجيب. عفاريت الكوابيس تحوم حولي فتخطفني. أدقّق في السقف، تتحوّل الخيمة من رمادي قاتم اللون إلى هيكل ثلجي كجبل من جليد، أراني محتجزاً بداخلها.

عدتُ صفر اليدين. بعد انتهاء إجازتي، عرّفتُ نفسي إلى قاطع *الفكّة* حسب التعليمات. وضعوني ضمن سرية من سرايا كتيبة مدفعية. كانت تتكوّن من عشرة مدافع صاروخية من نوع *غراد* والتي تحملها شاحنة على ظهرها. عرفتّ أن أسميها *چلچله* كما

يسميها الآخرون. يتطلّب تلقيم المدفع بقذائفه الثقيلة مساعدة الآخرين. كنا خمسة جنود نتعاون فيما بيننا للتلقيم وإطلاق النار. خلال أيام قليلة ارتفع من حولنا تل من مخلفات القذائف. تلٌّ من الحديد لو تمَّ تذويبه لصُنعت منه جسور تربط بين ضفتي الحياة وبُنيت على ظهره بيوت، تأوي المساكين والفقراء من البشر. بين وقت وآخر تأتي جرّافة تجرف تلك المخلفات جنباً. كانت الواحدة منها تساوي طول الجندي؛ نفترش عدداً منها على الأرض فنربطها ببعض فنصنع مصطبة ننام فوقها خشية دبيب العقارب والثعابين. تتمدّد الحياة مؤقتاً فوق الموت. لكن الأمر لن يطول كثيراً... قد تنسحب الكفة على تلك، فالموت يأتي على حين غفلة، ذلك إنَّه أشطر من الحياة.

هبّت من نبع الصمت عاصفة هوجاء كسّرت جبل الجليد. تهشّمت أجزاءه فتطايرت نحو السماء. بدت تلك القطع الجليدية أوراقاً تتطاير في الفضاء. أرسلت عيني تدقّق في تلك الأوراق في وجوم واستغراب. كانت هي ... !!! هوياتنا المدنية !!! لكنها بيضاء دون معلومات. لا اسم لاعنوان لا بلد لا ميلاد، فحتى الصور الفوتوغرافية غطاها الجليد. الشعار وحده ثابت في مكانه. الأسد الذي يمسك في يمناه سيفاً مقوساً صقيلا، يستلُّ نفسه من الشعار في زئير مخيف. تبرز الشمس من خلفه فأشعر بدفء لذيذ يسري في عظامي للحظات، لكن سرعان ما يخفت وهجها لتتجمّد هي الأخرى تحت سلطة الجليد. يثب الأسد نحوي وثبة قاتلة. أتراجع إلى الخلف مذعوراً. يمسك بي فيرفعني نحو الأعالى والسيف في يمناه مسلط على هامتي:

– لم فرّطتم في هوياتكم؟

– نحن؟.... أبداً...العاصفة هي التي أخذتها...

– لا أصدق. كان المفروض أن تعتنوا بها كما اعتنيتم بمفاتيح البيت التي حافظتم عليها... كما حافظتم على أرواحكم.

– من أنت؟

– أنا هويتك... ألم تراني من قبل؟ فأنا من يحميك؟

– كيف تدّعي أنك هويتي وتحميني بينما ترفع السيف بوجهي لتقتلني؟

– لأنك قصّرت في الاحتفاظ بها فعليك أن تموت.

همَّ برفع السيف ليقطع رأسي، انكمشتُ في داخلي فأغمضت عينيَّ في ذعر، ... لقد انتهى أمري. مرّت دبابة مدرّعة متجهة نحو المدينة على جناح السرعة فداست الأسد فمزقته. مثّلت به وكَّسرت السيف فأحرقت الشمس تحت لهيب حماسها. زفرتُ في ارتياح. نجوت في معجزة. مددتُ يدي نحو السيف فحين رفعته وجدته خشبياً كتلك التي نصنعها من صناديق الطماطم حين كنا صغاراً وحين كنا لانملك لُعباً. وجدتُ الأسد من ورق والشمس أيضاً كانت من ورق. ضحكت في سري، فالضحك في العلن لا يليق بمن مثلنا.

-٦-

قبل أقل من عام تقريباً وقبل أن تقوم الحرب بشهر واحد، كان حامد قد التحق بالخدمة العسكرية. حاولت أمي ثنيه عن الالتحاق بالخدمة ليس لأن البعض كان يتنبأ بحرب محتملة، بل لأنها كانت تحبة حباً لا يوصف حيث لاتستطيع مفارقته ليوم واحد، حتى كنت أحياناً أغار منه أشعر بأنني هامشي لستُ إلا. يحترمها ويمتثل لأوامرها حتى الإمكان. قليلا ما تصدر منه حركات صبيانية كما التي تصدر مني فأكون مزعجاً أو أكثر من مزعج، أتسبّب ببعض المشاكل للعائلة. أما أبي فلم يعارض. حاولت إقناعه مراراً لكن في النهاية هو الذي أقنعها أو ربما تصنّعت القناعة. ذات يوم قال لها ممازحاً:

- أريد اتزوج يما... لو ما أخدم محد ينطيني مرا. جهزي نفسج أوديچ خطابا.

- أوي يما يوم السعد زواجك. مسعده التاخذك؟

حامد الذكي المؤدب كان رياضياً يمارس كرة القدم وحارس مرمى لفريق البلدية وقد حصل فريقه على بعض الألقاب والمكافئات. كان قد قرّر وبعد ما حصل على الدبلوم

أن يعمل موظفاً في البنك رغم أن أبي كان يحبذُّ أن يُدخله السوق. لكن لمْ تكن لديه المؤهّلات اللازمة منها الخدمة العسكرية . البعض من رفاقه" الشلة" كما كان يسميهم هو كانوا من ضمن دفعته:

– يما اليوم باچر كون أمشي. والشلة كلها وياي.

– أخاف عليك بعد أمك . يما الدنيه مادري اشلونهه. خل انشوف تاليهه شو حچي الناس ايخوف.

– ماكو حرب يما هذا كله حچي. المسلمين ايد وحده ومتحدين ... المسلم ما يقتل المسلم.

تلقّى التدريب العسكري في أحد معسكرات الجيش في بروجرد مدينة من مدن الحجر وكانت فترة التدريب العسكري قبل الثورة أطول ممّا هي عليه الآن. لم أسمع بهذه المدينة حينها، إذ كنت أتصوّر أنَّ *دسبول* نهاية المدن، حيث لاامتداد لخارطة العالم بعدها. كنت أحسب المدن التي يذكرها المعلّم في الصف مدناً خيالية، حبر على ورق. قال لي أبي ذات يوم إن سياسة التجنيد العسكري في الجمهورية في بداية الأمر كانت تسير على منهج سياسة النظام البهلوي حيث تقوم على إبعاد الجندي المكلف عن موطنه قدر الإمكان. يُرسَل الأهوازي إلى محافظة آذربيجان والآذري إلى محافظة كردستان والكردي إلى مقاطعة بلوشستان والبلوشي إلى إقليم خراسان والجيلي إلى الأهواز وهلم جرى.

باص من النقل العسكري تكفّل بنقلهم إلى بروجرد. أرادت أمي أن تودعه حتى باب المعسكر لكن أبي منعها عن ذلك. أبقاها في البيت وقلبها يغلي من حرقة الفراق. قال لها إن الجيش لا يسمح بحضور النساء في التوديع وبأنه هو الذي يذهب لتوديعه. قبل أيام من الالتحاق اشترت له كل ما يحتاج في رحلته. ملابس معظمها شتوية ونعال مطاطي ومنشفة وأدوات الاستحمام. عارضها أبي في بادي الأمر قائلا:

–لا ... ننطيه افلوس وهو يشتري مناك أحسن. چا ماكو هذه الأشياء هناك؟

لكنه سرعان ما أدرك أن قلب الأم لا يقتنع إلا إذا اهتمَّ بالتفاصيل بنفسه. في يوم الالتحاق خرجت برفقة أبي لنودّع حامداً، وكان عمّي ثامر وابنه وبعض الأصدقاء قد رافقونا. عند الباب كان بركان الأمومة يغلي بداخلها دون أن تعلوه سحابة دخان داكنة، لكن الدموع كالحمم كانت تنساح إلى سفوحه تأخذ مجراها عبر التجاعيد لاتجف إلا عندما تمسحها بشيلتها. غريب هو أمر الشيلة هذه، فحين تبتسم — وما أقلَّ ما تبتسم– تُخفي ثغرها خلف الشيلة حياءً ، وحين تبكي تخفي وجهها خلفها أيضاً. كان أبي قد أخذ منها وعداً ألا تبكي أمام حامد. كانت كما وعدت لكنها بكت كثيراً ما أن ابتعد من عتبة البيت بأمتار. كانت تبكي في صمت، لاسيّما في سكون ذلك الليل الذي بدا لها أشدُّ ظلاماً ، حين تضاعفت أوجاعها، فتعاضدت لتشكّل قوة ضاغطة تنوء لها الروح وتئن رغما عنها. كشفتها أكثر من مرَّة ، تّخفي وجهها خلف الشيلة فيعتلي نشيجها. ذلك البركان يفرغ حممه الحارقة التي تحرق نفسه دون غيره ليس كالبراكين الأخرى التي تنشط لتّحرق الأخضر واليابس على حد سواه. هي ترى ما لا نراه. كشف وشهود ينبع من صفاء الباطن. ربّما بدت لها تلك اللحظة أنياب وحش الحرب وهي تقطع البشر إرباً إرباً بعدما أدركت أن عجلات الحرب ستدور فستمشي على أكتاف المدنيين العزّل والجنود قبل غيرهم. توسطنّها النسوة من الجيران فرُحن يصبرنّها. بعد التحاقه واست نفسها بتلك الصور الفوتوغرافية. كلما حنّت إلى حامد كانت تخرجها لتأخذها بالتقبيل. قبل أيام عند الفجر أيقظني صوت همس:

– السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التفتُ نحو مصدر الصوت، فأتلصّص من تحت بطانيتي. كانت أمي تصلي. فتحت الصندوق بعد ما انتهت من الصلاة، فأخرجت منه صورة ، أظنها كانت لحامد. تعالى منها نشيج خافت في تصاعد. أهكذا هي الأمهات؟ هل يشعرنَّ بأمر لانشعر به؟ هل ترى الأمهات ما لا نراه؟ فزَّ أبي من نومته. مدَّ يده نحوها، فراح يربت على يدها ثمَّ وارى

وجهه تحت اللحاف. أظنه هو الآخر غطَّ في نشيج. هل الحرب التي قامت بعد شهر من التحاقه بالعسكرية على موعد مع القدر لتلتهمه وتقطع أخباره عنا؟

-٧-

"دانه" أكبر وأغلى ما في اللؤلؤ، عند الخليجيين اسم فتاة جميلة يتغنّى بها المطربون ويتناثر منها أريج التراث، لكننا وظّفناها لأمر آخر. أسمينا الواحدة منها "دانه" والجمع "دان". لن تجد لها جذوراً في القواميس. مستعصية على أصحاب المعاجم، فلا الخليل يعرف الدان ولا ابن فارس ولا ابن منظور. نحن من ابتكرها. مولود ظهر في قاموسنا قبيل الحرب لا أباً له ولا أماً. بين ليلة وضحاها. الحاجة أم الاختراع. ظهرت لتفرمُنا أشلاء بشظاياها. اسم على مسمّى. قذيفة مدفع أو هاون أو طائرة مقاتلة...كلّها دان... المهم أن تكون قاتلة فتّاكة ... لاترحم من يقع أمامها أو خلفها أو تحتها. تقتل في كل الجهات الأربع، أينما سقطت. تدنُّ لها الإرض وترتجف لها القلوب خوفاً. في الفصحى: خَضعَ وذَلَّ، اقتصَّ منه، حمَلهُ على ما يَكره، ملكَهُ، خَسَّ وحَقَرَ، جمعت بمكر في جوفها الذهبي المصقول كل هذه الدلالات. أذلّتنا، اقتصّت منا، حملتنا على مانكره، ملكتنا، حقَّرتنا، قاربت بيننا وبين المِسكنة.

كلُّ ذلك حدث في يوم واحد، حين أصبحنا لاجئين. إسم آخر لعزرائيل. رغم ألوانها الزاهية وأجملها الذهبي، إلا إنها ملك أحمر من ملوك الموت؛ لها صفير حينما تقترب كما أنَّ للرصاص أزيز. أبدعناها ونحن المبدعون، حين أسميناها دانه فالاسم اسم فعل. تدنُّ لها الأرض حين تسقط كما يدُّن البطيخ الأحمر، حين يضربه البائع بكفه ليختبر مدى نضجه. دِنْ... دِنْ... دِنْ. كلُّ دنّة تدلُّ على نضوج. دنّة البطيخ الأحمر توحي بالنضوج وتعلن إنه حان قطعه بالسكين. حين تدُّن إعلم إن هناك أرواح قد نُضجت فحان قطفها. الكثير منها سقط على أسقف البيوت ووسط الساحات والشوارع. على النخيل والبساتين وحقول الحنطة. تتناثر الأشلاء فتطير في الهواء. يد هنا ورِجل هناك ... ورأس يتدحرج بين أرجل الفارّين من لعنة الصفير ثمَّ تطاير العويل والصراخ من جوف الخوف ومن ممرات الحناجر المرتجفة.

كانت الأوامر تنصح أن نتنقّل من مكان إلى آخر. إقصِف قبل أن تُقصَف. أربعون دانه تحمل الواحدة منها بشائر الموت للجهة المقابلة. تُطلق الواحدة تلو الأخرى بتسلسل دون إمهال.

أرتال من الآليات العسكرية والجنود ما زالت تتوافد نحو المدينة بحماس، حتى قصّت بهم وبالعتاد وبالسلاح، أصبحنا منبوذين لامكان لنا، فتقيّحت المدينة بأبنائها ... مواطني مدينة الطين.

صار صفير الدّان الذي تصمُّ له الآذان يبتعد تدريجياً والمدينة كإمرأة ينتابها غثيان الحمل بين حين وآخر فتقذف بنا. روائح الموت والبارود والدم تنذر عن حمل مخيف. رحماك ... ربّي من ذا الحمل المخيف.

بدت المدينة لاجئة هي الأخرى مع أهلها. الدّان ينهش في جسمها الغضّ. من تلك المرآة الجانبية أراها كلَّما حاولت النهوض سقطتْ أرضاً، لينهشها الدّان من جديد. بمن تستغيث وصوتها المبحوح قد اغتصبه صفير الدّان وأزيز الرصاص ودوي المجنزرات والطائرات؟

تلٌّ من البشر كان مثقلا به الوانيت. خمس عوائل معظمها من النساء وكبار السن والصغير وأكبر الصغار كان ابني حمودي. مثل حبّات الرمل المتراصّة على بعض. جواز السفرة القسرية هو أن نترك كلّما كان يُنسب الينا. حتى الأحلام التي تربّت معنا وفي أحضاننا، لكن حلماً شقياً كان قد دسُّ نفسه بيننا خلسة فحين حطّت بنا رحال تلك القافلة على بوابة مدينة الحجر، تفاجئنا حين وجدناه يلوذ بين أرجلنا فسألناه عن هويته ، ردَّ دامع العينين: العودة.

كان الوانيت سفينة نوح، إلا إن من دخلها غرق ومن تخلف عنه غرق أيضاً.

– الكلُّ سيغرقون.

هذا ما قاله الملاك. رأيته هناك، في السماء من فوقنا. لا أعلم ما إذا رآه أحد غيري. يبسط جناحين أحمرين في كبد السماء، فكان كالظلِّ يحوم من فوقنا بعينين حمراوين... صاح بنا:

– ستموتون وأنتم أحياء، عبثاً تهربون!

لكنني مازلت أؤمن بأنها ستكون قصيرة ...

– *نرجع بعد أيام ... ما ناخذ شي ويانه ...نكفّل ونمشي.*

تركنا المدينة وحمل الوانيت يئن من ثقل الهم الجاثم على النفوس وحجم الحزن الذي قد أذبل العيون فساح على الوجوه. شحوب يصطبغ وجوهنا بلون القحط والجوع والمدينة لها وجه مصفر كصفرة الدلال التي تركناها بين رماد الفحم المتكلس هناك.

من سينفخ الرماد في أعين الشيطان المتفشّي في جماجم سماسرة الحروب؟ من سيشعل النار في دهاليز الجهل والظلام فينير الدرب لكي لا ترتطم الأعين بالجدران الحجرية. صرت أسمع أنين مدينة الطين من بعيد فكان مألوفاً أميّزه من بين أصوات القنابل ودوي المدافع وأزيز الطائرات. كنت أراقبها من بعيد حين كانت تتقافز فوق أعلى مبانيها لتتبعنا بنظرات الحزن والألم وتمدُّ يديها تستنجد بنا كي لانتركها فريسة الوحدة والغربة.

كانت العمليات قد بدأت منذ أسبوع، شارك فيها قاطعنا مشاركة فاعلة. سبعة أيام والمدفعية تقذف الحمم دون هوادة. كان من الضروري ترك المدفعية لبعض الوقت كي تبرد، فالحديد يحتاج أن يلتقط الأنفاس، كما إن الحرب تعدّ الأنفاس كي تقوم من جديد وأقوى من ذي قبل. لكن للضرورة أحكام لابدَّ أن تخضع لها الرقاب. كلّما قتلتَ كلما اقتربت إلى النصر المؤزّر. قذيفة هاون طائشة سقطت بالقرب منا. قُتل على إثرها أحد أفراد طاقمنا الخمسة وجّرح آخر. كان القتيل من المحمّرة والجريح من بلوشستان. أكبر الشظايا حجماً مزّقت صدره.

وفية ظلالنا، حيث كانت تركض خلفنا طوال الطريق، عبرت معنا قرى ومدن كثيرة. كانت هي الأخرى تظنُّ إن المقصد قريب. لكنها تعبت فصارت تلهث حتى سقطت الواحدة تلو الأخرى فاختفت تماماً على مقربة من بوابة مدينة الحجر. نظرتُ تحتي... الأرض تخلو من الظلال...لاظل لي. لاظل لأي منا. حتى الوانيت فلا ظل له. إن غاب ظل الحديد فكيف يكون للحم والشحم ظلا؟ رميتُ ببصري نحو مدينة الطين، وجدتُ من بعيد ظلالا مكوّمة على جانبي الطريق. مكدّسة بعضها فوق بعض وأسراب من النسور تحوم فوقها. تذكرت النسور التي تتوسّط الأعلام، أما زالت ترفل؟

-٨-

أمضينا أشهر في المدرسة دون أن تصلنا رسالة منه، تخفّف من وطأة القلق المتفاقم عند أمي وأبي. كيف يقف عند الباب ساعي البريد واللاجئ مغيّب عن الوجود لاعنوان له؟ صار القلق ينهش في جسد أمي، فهي تحيا على ذكراه. بان التوتّر في تصرفاتها والسُهاد ترجمه ذبول العينين والهالات الداكنة من حولهما. تلفون معسكر التدريب ببروجرد لا يرد؛ بعثنا برسائل على عنوان رسالته الأخيرة لكن دون جدوى وكأننا نرسل على العنوان الخطأ. قرّر أبي أن يسافر إلى بروجرد ليتابع الموضوع ويستفسر حقيقة الأمر عن كثب. قلق أمي المتزايد وحالتها المأساوية سارعا في ذهاب أبي إلى بروجرد. راجع المعسكر الذي تلقّى فيه حامد تدريباته العسكرية، لكنه وصل متاخراً. قيل له أن حامداً و دفعته من الاهوازيين تم إرسالهم إلى حدود دولة آذربيجان في الشمال الغربي للبلاد بعد ما تمَّ تدريبهم على يد المدرّبين المختصين. لمح له أحد الجنود من الدفعة الجديدة متحاشياً

انتباه الآخرين أنَّ الضابط المسؤول للوحدة هذه والتي كان قد التحق بها حامد قبله له مواقف معادية للأهوازيين، حيث كان يُعيق بشكل أو بآخر اتصال هؤلاء الجنود بذويهم أو مراسلتهم لعوائلهم خلافاً للوحدات الأخرى، بل كان يعاملهم بقسوة. بعد أيام عاد أبي خائباً، فنقل لأمي ما جرى ،لكنه لم يخبرها إنه عاد أدراجه بسبب نفاذ المال وعدم مقدرته دفع التذاكر لمواصلة السفر. بقى صامتاً يفرك كفتيه حين لامته على قصوره في عدم مواصلة المسير وعدم اللقاء بحامد على الحدود.

– يما وليدي. چان رحت وراه وشفت اشلونه؟ مالونه؟

– هو بالحدود مثل ماگالو. مايسمحون لأي شخص يدخل هناك؟

– والتالي اشلون؟ انظل بليه خبر؟

– لاتخافين عليه . بعدين لا أكو هناك حرب ولا شي . إلمن هالخوف؟ اشكري ريچ ما أرسلوه للجبهه.

– يما حامد. شتاكل؟ شتشرب؟ وين تنام؟ تتغطى ماتتغطى والدنيا هناك ثلج وبرد؟

– لاتخافين. كلشي يتصلح

– خلي ايمانچ بالله قوي.

– أمنت بالله . بس گلبي يگرصني.

بعد أيام تحدّث أبي مع والد أحد أصدقاء حامد الذين التحقوا معه بالعسكرية :

– أبوحامد لاتخاف . ذيچ المنطقة ما بيها حرب . على الحدود التركية . خليه يضل هناك حته تخلّص خدمته.

–اشلون؟ تجيكم منه رسايل؟ أخبار؟

– ماكو هناك تلفونات. والرسايل هنا ماتوصل . محد يعرفنه. مجهولين. لكن بعدين نطيت عنوان دائرة شؤون النازحين[1]. اجتني منه رساله وحده فقط.

---

١ – أو "بنياد امور مهاجرين"، مؤسّسة حكومية، تهتم بشؤون نازحي الحرب.

أراد أبي أن يرسل رسالة إلى حامد يطمأنه بأن الأوضاع مستقرة وإننا بخير لاعوز لنا إلا وجوده. وإنه حصل على عمل براتب جيد مكّنه من تأجير بيت كبير في منطقة سكنية جيدة لكنه تساءل في مرارة بعد ما شعر بوخزة:

– زين... راح أودي له مكتوب ... لكن اشلون وإحنه ماعدنه عنوان ولا يعرفنه أحد؟

بعد فترة استلم أبي رسالة من مديرية شئون النازحين كان حامد قد بعث بها، و كانت الثانية. حين استلمها طار بها إلى الغرفة وكان ستارها مسدلا. كانت أمي كعادتها قد وضعت قدراً على الفريمس وقد ملأته بالماء لتحميم حنان وقد أجلستها في طست معدني. لم تكمل التحميم حين أخبرها بأمر الرسالة فلفت أختي ببطانية فوراً وأطفأت الفريمس لتجلس بحماس طافح تستمع ما كتبه حامد وقد اختلطت البسمة التي اقتحمت وجهها الشاحب بعبرات حارقة جرت على وجنتيها. كل الظن إن تلك العبرات أشد وقعاً من تلك الابتسامة الشاحبة ربما لأنها تشعر نوعاً ما بأن الرسالة هذه قد تكون الأخيرة.

تحدّث فيها عن الظروف الطارئة وعن رسائل كتبها لنا، والتي أعيدت إليه لعدم صحّة العنوان. تكلّم عن نقله من بروجرد إلى حدود آذربيجان ومن هناك إلى قاطع الفكّة مع رفاقه دون إعلان مُسبق. أخبرنا فقال إنه كان قد حصل على رخصة لأسبوع جال فيها في مخيّمات اللاجئين بمناطق متعددة، لكنه لم يعثر علينا. تهلّلت أسارير أمي فرحاً حين قرأ أبي العبارة الأخيرة لحامد–العبارة التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر– وهو يخاطب أمي قائلا:

- *يما آنه بقاطع الفكّة. أخذت رخصة عشرين يوم. بعد أيام أنا عدكم .*

كانت هذه العبارة ذروة الفرحة. لا يسعها العالم الرحب، فودّت لو أنها طائر فتطير، فراحت تطلق الزغاريد وقد ردّت عليها زغاريد من نساء في صفوف أخرى كانت

متعاطفة. لمحت عيني أبي وقد اغرورقتا بدموع الفرح. لكن حامد لم يأت. وعاد مع مرور الأيام الانتظار والقلق والشحوب على وجهها من جديد كما عاد الانكسار في قلب أبي والخيبة المضاعفة تداهمهما. رغم مراجعته المراكز العسكرية والجهات المعنية في الجيش والحرس ومساهمة اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومتابعتها موضوع المفقودين عبر التنسيق بين السلطتين الإيرانية والعراقية، لم يفلح أبي في العثور على ما يهدّئ باله.

-٩-

على حافّة الطريق السريع المؤدّي إلى مدينة الحجر، كان هناك جدول ماء يجري على مقربة منه، يُسقي البساتين التي امتدّت بموازاة الطريق وبعض الأشجار التي تظلّله. هناك على الحافة ثلاث عُلب كبيرة من التنك كتلك التي تُستخدم لتعليب الطماطم. إحداها مصطبة، يجلس عليها رجل كهل نحيل بشعر أشعث ولحية مهملة نافرة، وقد اصطُبقت بريشة الزمن الرمادية. ظهره مقوّس بعض الشيء، وحول رقبته تلتف كوفيّة قد أسدل طرفيها على صدره. العلبة الثانية مشحونة بماء الجدول، والثالثة محشوّة بأحجار وقد ثبّت الرجل الكهل في جوفها عموداً خشبياً قصيراً، وضع على رأسه إزاراً أحمر من تلك الأزر التي تلفّها الزبائن حول خصرها في الحمّامات العامة. بين حين وحين يلوّح الرجل للسيارات المارّة التي تأتيه من يساره بقطعة أخرى من إزار أحمر وقد أمسكه باليدين كمصارع من مصارعي الثيران

الأسبان، تارةً يقف وتارةً يجلس بعد ما يملُّ الوقوف أو يشعر بشئ من الألم يستيقظ في رِجله اليسرى. حين الجلوس لا يفيقه من شروده إلا صوت محرّك سيارة تقترب من بعيد، أو الألم الذي ينتاب تلك الرِجل، أحياناً، فيعالج الأولى بتلك التلويحة الدعائية والثانية بما تجود به يداه من فرك ، يمنح بعض الارتياح في خاطره.

أخيراً توقّفت على بعد بضعة أمتار منه سيارة بيكان سماوية، فهبَّ الرجل من مصطبته متفائلا، فهرع نحوها في هرولة أبانت في رِجله شيئا من العرج. وقف عند السائق:

– سلام عليكم

أزال السائق الشاب نظارته الشمسية، فلمح الكوفيّة حول عنقه ما حفّزه على أن يستخدم أدبيات خاصة وجدها مناسبة:

– زاير... بكم تغسل السيارة؟

– مئة تومان سيدي.

– كثير جداً. الماء من الساقية والمكان حافّة الطريق العام... فلا تدفع إيجاراً ولاهم يحزنون...

لاح في وجه الرجل الكهل شيء من الإحباط داراه بابتسامة بلهاء ولغة فيها مسحة من الالتماس:

– لابأس. سأخفّض لك السعر. سأغسلها بثمانين تومانا.

– ساعطيك خمسين تومناً.

خمسين؟ ... خمسين أفضل من لا شئ (قالها مخاطباً نفسه بعد ما مكث لثوان يراجع حساباته)

– لابأس. تحت أمرك.

خرجت عبارة تحت أمرك مضغوطة بين قوسي نشوة ابتسامة السائق وخنوع الـ "زاير".

نزل السائق بعد ما نزل صديقه. افترش الرجلان حصيرة صغيرة على مقربة من حافة الجدول المعشبة، يدردشان معاً ويراقبانه عن كثب، وهما يحتسيان المرطبات، ويطلقان النكت، والضحكات العالية التي تطرق أبواب مسامع الزاير بعد حين وحين. في همّة ملحوظة تناول علبة التنك المملوءة بالماء. رشّها على هيكل السيارة حتى صار الماء يخرُّ من جوانبها كالميزاب، فراح يفركها بالإزار الأحمر يزيل الدخان والأطيان العالقة فيها وقد بدأ من المقدمة والزجاج الأمامي تحديداً. ملأ علبة التنك من ماء الجدول مرة أخرى وفي النهاية زوّد الماء بمسحوق الغسيل فمكث لثوان حتى يتحلّل السائل فيه.

راح يغمس الإزار بسائل الغسيل ويمرّره على الهيكل الخارجي للسيارة. فركها برفق كأم تفرك طفلها الطري ثمَّ جفَّفها مستخدماً إزاراً آخر ناشفاً وكان بين الحين والآخر يسلخ الماء منه، حين يمسك طرفه فيضربه في الهواء بأقصى قوّته كلّما تثاقلته المياه، يُحدث بذلك صوتاً يشبه صوت ضرب السياط في الهواء. ينسلخ الماء عن الإزار، فينزل رذاذ الماء المتطاير في الهواء مجدداً وقد تحوّل إلى ذكريات وخواطر انهمرت على رأسه كالشلّال المتدفّق:

– أهلا بك آقا . أهلا بك في القصبة .كيف حالك؟ كيف أسواق التمر عندكم؟

– الحمد لله حاج نعيم . من المؤكّد إن جودة التمر لنخيل الحاج نعيم ممتازة لاتنافس في أسواقنا. جئت لأشكرك على تعاونك معي وإرسالك لي أجود أنواع التمور في الأهواز. كما جئت لأطلب منك شحنة أخرى من تلك التمور والدفع فوراً.

– أنت اليوم ضيفي. بعد الغداء سنتعامل.

بإشارة من الحاج نعيم، افترش أحد العمّال فرشة وسط ظلال النخيل الباسقة المصطفّة بانتظام بين أرجاء البستان الواسع لتُقام فوقها مائدة الغداء. دعا الحاج بعض العمّال التي كانت تعمل في صنع الصناديق والتي تكدّس الكثير منها على مقربة من المائدة للانضمام إليها، احتفاءاً بضيف نزل عليه. كما دعا بعض

الصواعيد الذين يحزّون رقاب الأعذاق الذهبية فينزلونها أرضاً، مستخدمين حبالاً قطنية. في الشارع المظلّل تحت هامات النخيل تُشحن الشاحنات من خيرات تلك الهامات.

حين يتوقف الإزار يستلُّ نفسه من الماضي وشروده. بعد ما أنجز العمل رفع يده نحو الشابين معلناً إتمام المهمة وقد أخذ منه التعب مأخذاً. تقدّم السائق وبقى صديقه مهتماً بلملمة الأغراض:

– ماذا عن هذا الإزار ... ياعمّ؟

– أي إزار؟

– الذي حول عنقك.... ألم تستخدمه للتجفيف كما الأحمر؟ فهو ناعم حريري... أجده أفضل من الأحمر. أراك تُرهق نفسك في التجفيف عبر ضرب الإزار في الهواء بينما لديك هذا. لمَ لففته حول عنقك، وهو نظيف يصلح للتجفيف؟

– هذه ليست إزاراً. إنها كوفيّة.

– ماذا؟... ماذا تعني كوفيّة؟

– إنها غطاء الرأس عندنا. ليست إزاراً ولا مِنشفة.

– وإن كانت كذلك، فلمَ لمْ تستخدمها؟ ولمَ تغطّي رأسك أساساً؟

ثم مدَّ يديه فأخذ يتلمّس طرفي الكوفيّة. وجد ملمسها ناعماً كما كان يظن ثمَّ صار يشدُّها إليه في شيء من التهكّم وقد ارتسمت على شفتيه بسمة ماكرة، فراح يكرّر في ابتزاز:

– إمممم...ملمسها ناعم . تصلح للتجفيف.

بقى "زاير" مطرقاً يراقب أصابع الشاب وهي تبتز طُهر الكوفيّة، منجل حاد يحزُّ عنقه. بدا بداخله غليان الامتعاض وشحنة بثَّها لهيب الغيرة، لكنه تمالك نفسه فأمسك بيدي الشاب برفق وكأنه يلتمسه أن يكفَّ عن الابتزاز. استمرَّ الشاب فضاعف الشدّ ما أجبر الزاير على المسايرة، فتطوَّر الأمر إلى شدّ وجذب بين

الطرفين، هذا يريدها أن تبقى كوفيّة ، رمزاً لكيانه والآخر يراها أمراً تافهاً تصلح أن تكون منشفة كالإزار الأحمر لا أكثر. أفلت الشاب طرفي الكوفيّة:

– أليس الوطن أكثر ثمناً من هذه الخرقة البالية؟ كان عليكم أن تحافظوا عليه وليس على هذه ...

– بل إنه أغلى ما في الوجود. كن مطمئناً. لن نبقى لثانية إن سمحوا لنا بالعودة حتى ولو لمْ تلملم الحرب أوزارها.

التقت النظرات وبريق من الحنق تتعالى شرره. تحوّل الشدّ والجذب من طرفي الكوفيّة إلى طرفي تلك النظرات، حتى صاح الجالس في السيارة:

– هيا... الوقت تأخّر.

التفت الرجل نحو صديقه نصف التفاتة. ألقى نظرة خاطفة نحو ساعته اليدوية فأدرك حينها أن الوقت قد تأخّر. تراجع إلى الخلف دون عينيه. دسَّ يده في جيبه فرمى الأجرة عند أقدام زاير. لم ينته الشدّ والجذب بين النظرات إلا بعد ما ابتعد البيكان.

-١٠-

الزقاق الضيّق الملتوي على نفسه أكثر من التوائة، كان مغلقاً في نهايته. الجو المحتَقن وشى بذلك قبل أن نبلغ منتهاه. يلتوي نحو اليمين تارةً ونحو اليسار تارةً أخرى. على جانبيه بيوت متراصّة دون انتظام. لم تشفع لها سماكة جدرانها في مقاومة الرطوبة والعَفن الأخضر. طوال الطريق لمْ يتكلّم أبي كلمة واحدة، شاهدتُ التوتّر في خُطاه وفي صمته. في الجو الخانق لانسمة تمرُّ. تلك الجدران التي تشابكت ظلالها والتي تكسوها طبقة من الإسمنت بأصباغ بدت متقشرة، فجعلت الزقاق مظلماً بعض الشيء. خُيّل لي أنها على وشك الانهيار. حضور قوي للحجارة. كلّ ما لامسته أعيننا كان من الحجارة، وكأنما البيوت تلك قد بُنيت في العصر الحجري. الحجارة في كلّ مكان، كما أن الموت يتواجد في كل شبر من مدينة الطين. إنما الفرق في اللون والحجم، فهذا مات بشظية وذاك برصاصة، ذاك بقصف للطائرات، وهذا بقذيفة هاون... كلّها دان. لا أدري كيف حصلوا على هذا الكم الكبير من الحجارة.

من بعيد لاح لنا رجل كهل يقف في نهاية الزقاق؛ ما أن لمحنا من بعيد حتى تقدّم مُرحّباً مخاطباً أبي "حاجي" فشرع يتحدّث معه.

تذكرتُ أحد القادة الميدانيين حين قال لنا ذات يوم:

– إن سمعتم صوت غارة جوية فأنتم في أمان، فإنها تكون قد ابتعدت عنكم وخرجتم من مرمى قذائفها؛ إنما الخوف يكمن في عدم سماع صوتها، عند ذلك من المؤكد إنها ستقتلكم.

غارة جوية مباغتة غزت القاطع، تريد مدفعيتنا الصاروخية . كان لها أزير لكننا لم نسمع به. دوي مدفعيتنا الصاروخية كان قد أفقدنا حاسّة السمع. حتى وإن كانت تلك الحاسّة موجودة لدينا، فثوان قليلة تفصلنا بين سماع الأزيز وسقوط القذائف على رؤوسنا. لم يَعد هناك وقت إلا النطق بالشهادتين وانتظار الموت. في مستوى منخفض تتّجه الطائرات نحونا. تركنا المدفعية هاربين كي نلوذ بما يحمينا. قذفتُ بنفسي خلف ساتر ترابي، كان الجنود قد تركوه كي يتقدّموا في عمليات الهجوم. طوّقتُ رأسي بيدي وأنا أتكوّر. أغمضتُ عينيَّ وضغطت على أسناني.

غرابة المكان أشغلتني عن متابعة ما دار بينهما. أبواب ضيّقة متقاربة من بعض ، تجلس على عتبة إحداها عجوز تدير بيد مَعروقة مغزلاً نحيلاً، يرقص أمامها مسعوراً ليتحزّم بطيّات من خيوط الصوف، فتلتها بإصبعين مومياويين. تححظ عيناها فتنطلقان كالرصاصة نحونا، تمسحان ملامحنا وهنداماتنا مسحاً دائرياً. شبق الفضول عندها قذف نحونا بعلامات استفهام، كلّ الظن إن العجوز تمنّت لو أن جارة ما تشاركها المسح هذا، فتتبادل معها أطراف الحديث عن تفاصيل دخيلين اقتحما شريان الزقاق الرتيب على غير موعد. تحت أقدامنا يركض جدول صغير يتلوّى كالثعبان مع التواء الزقاق، فينحدر من الأعلى حتى يخرج منه حاملا في جوفه مياه قذرة، ليقذف بها في جوف جدول أوسع. دون تلك البيوت كان هناك بيت يقف في الواجهة، يُغلق نهاية الزقاق يختلف عمّا سواه، إذ فيه لمسة من الحداثة. بابه الحديدي الشكيل يقف على عتبة من رخام

ونافذتان مطليتان باللون الأبيض تطلان على خارجه؛ وعلى يمينه بيت أسوأ حالا من الأخريات، يبدو من فنائه إنه خراب في خراب، تظنُّ من النظرة الأولى إن حرباً تشبه التي قامت عندنا كانت قد لبثت فيه فهدّمته فجعلته خاوياً على عروشه. دخل الرجل ذلك الباب الخرب، وكان له مصراع واحد من اليسار مثبّت في مكانه، واليمين مخلوع مرمي على بعد أمتار في الداخل. حاسّتي السادسة كانت تخبرني أن أبي يريد إسكاننا هنا. منذ فترة وكان يفكّر في الهروب من حجيم المدرسة ومن لغط الضجيج والضوضاء. هل ستكون هذه الخربة أفضل من هناك؟ غرفة واحدة قد تصلح للسكن، أما الأخريتان فليستا كذلك. بابها المتهالك يصدر صريراً عند الفتح أو الإغلاق. لا أظن إن صريره يُعالج بالتشحيم. الرفوف التي في جدرانها الحجرية السميكة، مطلية بجص قد استحال إلى اسمرار هنا و إصفرار هناك. سقفها المقوّس مرتفع كسقوف المساجد. أرضيتها المرطوبة المفروشة بالإسمنت ملتحفة بجدران رطبة. لمحنا في الطريق أحدهم يخرج من باب بيته، فيرمي بالغلاف الكرتوني لثلاجة جديدة أدخلها فى بيته. إن حصلنا عليها سنفترش بها أرضية الغرفة. في الضلع المقابل لمدخل البيت هناك جدار هابط، أقيم من أحجار وضعت بعضها فوق بعض، من مختلف الأحجام دون انتظام، يمكن من خلالها النظر إلى ما خلفها. دفعني الفضول لأستغلَّ انشغال أبي بتفحّص الجوانب الأخرى من البيت. أغلقت عيني اليمنى فأرسلت اليسرى خلف الأحجار. وجدتُ نفسي وكأني أقف على تلّة تشرف على مكان منخفض، حيث إن الخربة هذه مع البيوت المجاورة، تُشرف على منطقة واسعة فما يوجد خلف الجدار الهابط ليس مجرد أرض واطئة، بل هناك مجموعة من البيوت والمحال التجارية، لكن سقوفها تحاذي أرضية الخربة. قُبب متناثرة هنا وهناك في انحدار. في نهاية المنحدر هناك شارع رئيس علمت من ازدحام السيارات وكثرة المارّة ولغطهم إنه سوق شعبي. لفتت انتباهي قبّة كبيرة بسقفها الزجاجي تتوسّط القبب، علمتُ فيما بعد إن حمّاماً نسائياً يقع تحتها. لم تكن البيوت حينها

تحتوي على حمّامات، فكانت الناس تذهب إلى الحمّامات العامة التي تقع في السوق عادة ويختص قسم منها بالنساء وقسم آخر بالرجال.

تذكرت حين كانت أمي تصطحبتني معها إلى الحمام العام أكثر من مرّة فكنت أرى النساء العاريات منها الشابات ومنها المتقدمات في السن. مباح حينها أن أرى كلَّ ما هو محذور ممنوع. كانت صديقات أمي يلاطفنني، فواحدة تمسّد على شعري المنسدل وتسألني عن اسمي ، وأخرى تقرصني في خدّي أو تضمّني إلى صدرها فيتسّرب إليَّ من صدرها الرطب دفء لم أجد له تفسيراً إلا بعد ما كبرت.

من المؤكّد إن أبي كان يمزح عند استخدامه لفظ " بيت" ولو إنه ومنذ الحرب لم يكن يمزح مع أحد. وددتُ لو أني أستطيع التأكّد فأسأل أبي عمّا يجري لكني أحجمت عن سؤال وجدتُ بين حروفه وفي ملامح وجهه المتوتّر ما أبحث عنه. رغم ذلك كنت أتتبّع تقاسيم وجهه التي بدت غريبة لم أشاهدها من قبل. أكوام من النفايات والأتربة والقاذورات هنا وهناك. سقف قد عشّعش فيه العنكبوت فغطّى بخيوطه بعض أجزائه.

– هل تواجدنا في هذه المدينة أفضل من البقاء تحت جحيم الرصاص والقذائف؟

-١١-

يا الهي...كم هي متقنة أبواب هذه المدينة!! سميكة مرتفعة كأسوارها الشاهقة، عملاقة كأبواب قلاع أسطورية. ليت أبواب مدينة الطين الهشّة الواهنة كانت كذلك. كانت مشرعة دائماً؛ أبواب رمزية، أقفالها "يا الله". من العيب أن تغلق الأبواب عندنا. تجدها في غفلة وخمول كحارس ليلي قد عبّأ الكرش بالنبيذ حتى الثُمالة. لا ألومها، بل اللوم يقع على أبواب مدينة الطين.

أبوابها كما قلوبها شُيّدت من الطين ... للستر فقط. القصب المتكاثر في طينها يحكي رحلة التلاحم الأزلي، فالطين صنو الكرم، والقصب هو القلم حين وضع المسمار في ناصية الطين. مشرعة بوجه الكل، فحتى الحرب حين وقفت على أعتابها رحّبت بها وهي تنفخ ريشها اعتزازاً.

عبثاً أبحث عن الدفء بين أحجار تلك الخربة التي أنزلت فيها عائلتي، وحتى في نظرات سكان مدينة الحجر وحتى المحايدة منها ، و إن كانت أقلّ حدّة من الحجر

المسنون وعن لغة قد تشعل وهج الطمأنينة في داخلي. أتفادى تلك النظرات والألفاظ فأرميها في بئري العميق. في البداية كنت أنصت لساعات حتى أسمع ارتطامها بقاع البئر، أمّا الآن ما أن أرميها حتى تصطدم بقاعه فوراً. كيف يمكنني أن أفرغ هذا الكَمّ الهائل من تلك الأحجار الرابضة في بئري؟ أيمكنني أن أحفر بئراً أوسع من بئري؟

خرجنا عُزّلا، بقلوب يتقاسمها الخوف، خوف سرعان ما تطافرت جيناته فاستحال إلى ضياع. وحزمة من الآمال التي تبدّدت عند بوابة هذه المدينة و هوياتنا الخمس لم تكن أفضل حالا، رغم إنني وضعتها أمامي على لوحة القيادة في داخل الغمارة، حيث خطفها أثناء الطريق تيّار الهواء الجامح المتهجّم من الزجاج الجانبي، حين كان الوانت يستلُّ نفسه من المدينة في سرعة البرق.

أول الغيث غيّروا اسمنا فصرنا "لاجئون"، مدعاة للشفقة عند البعض والشك والريبة بلغ حدّ التخوين عند البعض الآخر. بلغ الأمر حتى وصفنا بعضهم بالطابور الخامس. أيعقل أن أكون الطابور الخامس وفلذة كبدي في الجبهات يضحّي بنفسه و لا أعلم بمصيره؟ أهناك مهرب من بين فكي لظى حرب أحرقت أجنحتنا ومأساة تشرّد أغمستنا في مستنقع الجوع والذل والخواء؟ خرجنا لم نحمل إلا ثيابنا التي كانت تلتصق بنا كالجلود. كانت تخشى أن ننتزعها فنتركها عراة كأننا راحلون إلى أرض العدم.

تلك المساءات المتعبة التي تقذف بي منهكا على دكّة الإفلاس، أداريها برفقة المذياع. أحمل بكفين فارغتين خيبتين: خيبة جُهد شبه يومي لم يثمر، وخيبة حرب أوثقت رجليَّ بحجر فرمت بي في بئر عميق سرمدي لا يمكنني التكهّن بزمن الارتطام بأسفله فلا حيلة لي سوى الانتظار. انتظار المجهول بوجهه الضبابي، لا أنف، و لا فم، و لا ناصية... بل لامعالم له. قناع خلفه لاشيء. لكنني أراني أعيد الكرّة في الصباحات. عواء ذئب الجوع في بطون صغاري الخاوية، واختفاء حامد،

ومرض أمه، ورطوبة الخربة ... وقائمة الضنك تطول. لا يوجد في قاموس الفقر الكافر مساحات للمساومة. المعدة ليست بيت الداء، بل بيت للوي الأعناق، وفض بكارة الكرامة.

كان لحمودي الحق في ظنّه إن خروجي الشبه يومي في الصباحات حتى المساء ، لم يكن إلا للدوام. هو يعرفني إن لمْ تعرفني الجيران المتزمّتون، إنني لست كسولا، أبحث عن الراحة هروباً من العمل والمسؤوليات وإن كانت صعبة. كنت تاجراً بمدينة الطين أمتلك محلا لبيع الأجهزة المنزلية يعمل لديَّ بعض العمّال و كان لي صيت و رصيد محترم من العلاقات الاجتماعية.

عند المساء كانت تنتظرني عند الباب كعادتها. اكتفت بعبارة واحدة قالتها في شيء من الانكسار يحاكي ما أحمل في داخلي :

– *هله ، الله يساعدك أبو حامد.*

– *هله بيچ*

قرأت من بين أحرف الردِّ إمارات الإرهاق... التعب... خيبة الأمل. بفطنتها وعشرتها الطويلة معي أدركت ذلك. أعلم إنها أرادت أن تسأل سؤالها المعهود. لكنها تراجعت عن طرحه، تتفادى نتائج مشبوهة الملامح كمستقبلنا. عادت عيناها المتعبتان إلى القلق من جديد، قلق كالظل يلاحقها دائماً... اسمه حامد. أعرفها كما أعرف نفسي، فهي التي غاصت في محيطات أفكاري وجالت في خلايا وجودي واندمجت معي في الشدّة والرخاء، بعد ما عاشت معي تلك السنين الطوال. وجدتني بيد رخوة أدفع الباب الموارب المرمّم من جذاذات التنك. كان الباب في اليوم الأول مهشّماً مهترئاً وبمصرع واحد، أمّا الثاني فمخلوع مرمي في باحة البيت. لم يصدر الباب صريراً هذه المرة، رغم إنه كان صدئاً، فربّماً تعاطف معي أو ربما كان يخشى ممّا كانت تخشاه أم حامد وتتفاداه. بقدمين مثقلتين تنزفان تعباً عبرتُ الباب فنزلت ساحة البيت الهابطة عن مستوى الزقاق مقدار سلّمين

كطبيعة البيوت الحجرية القديمة. طويتُ برجلي خطوات من الساحة المفروشة بالطابوق القديم حتى وجد نفسي عند حافة الحوض الإسمنتي، فجلست عليها مقوّس الظهر بعد ما تأوّهتُ بحرقة في داخلي. لم تكن في الحوض المثلّم الأطراف مياه منذ سنوات. يا ترى هل ماتت النخلتان في حديقة بيتنا؟

وضعت أم حامد قدراً على الفريمس لتفرك بالماء الساحن رجليَّ المتعبتين. كانت تقوم بذلك بعد كلّ طلعة من طلعاتي شبه اليومية. أتعبتني الأيام لاسيّما الأخيرة منها. كنت كالآخرين معارضاً بشدّه أن نسمّي خروجنا من المدينة نزوحاً أو "شرده" فكنت أرى إنها رحلة مؤقتة ليست إلا، لكني أنا الآن قلق، فقد طالت كثيراً. لا يصدَّق ما يحدث على أرض الواقع، لاسيّما وإن "كلامي" التاجر الذي كنت أتعامل معه قبل الحرب كان قد دعاني للقدوم إلى هذه المدينة في حال اندلاع الحرب، مقدماً لي الوعود في المساعدات إلى أن ترفع الحرب أوزارها وينتهي كل شيء. يبدو أن الكلام المعسول والوعود الفارغة في تلك الديار تجارة لا تبور.

لأي رَزية أئن؟ لمصير حامد المجهول؟ أم للوعود الفارغة؟ أم للفقر والبطالة؟

كان كلامي تاجراً كبيراً من أثرى وأشهر تجّار مدينة الحجر، تتناكح الملايين في خزنته، فهو يمتلك نصف ما تمتلكه المدينة من المحال والشركات والعقارات، وكان وكيلا تجارياً لعدد من الشركات الأجنبية التي تعمل في مجال إنتاج الأجهزة المنزلية كالثلاجات والمكيّفات والالكترونيات. لماذا تخلّف عني وخالف وعوده بينما كنت من زبائنه النشطين ووكيله التجاري في المدينة؟ لا عنوان...حتى إنه لا يردُّ على اتصالي.

هذه الخربة المهجورة الحياة، مأوى القطط السائبة، يملكها إقطاعي من المنسوبين للنظام البهلوي، قيل إنه كان من أعضاء منظمة السافاك المخيفة والتي أرهبت معارضي النظام البائد وقد لعبت دوراً رئيسياً في البطش والتنكيل بالشعب. فرَّ إلى خارج البلاد بُعيد إنتصار الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م وذلك خوفاً من العقوبات

التي تنبّأ إنها ستنهال عليه دون هوادة. ليتنا كنا نستطيع الهروب إلى مكان نريد. لاشك إنه قد سمع بالمدعي العام للثورة السيد خلخالي في تنفيذه حكم الله على من سار في نهج الشيطان وداس بأقدامه رقاب الفقراء فهو رجل في منتهى الصرامة والجدّية، لا يعر اهتماماً للومة لائم ولا يتوانى في معاقبة المتخلّفين والخونة في حق الشعب الإيراني. هناك قصص نُقلت عنه تفوق مستوى الأساطير منها إنه كان سريع الحساب في معالجة الملفات القانونية لاسيّما الأحزاب والتشكّلات السياسية التي "تمدُّ رجليها أطول من غطاها"حيث كان بإمكانه معالجة المئات من الملفات خلال أيام معدودة لاتتعدّى أصابع اليد!

وكان الرجل من الثابتين في مواقفه الثورية وأيدلوجياته السياسية، حيث سُئل ذات مرة وهو على فراش الموت ما إذا كان نادماً على إنزال عقوبة الإعدام بحق المارقين والمحاربين، فردَّ بحزم إنه لا يشعر بندم وقد قام بما كان يمليه عليه واجبه الشرعي وهو مرفوع الرأس أمام الله والشعب الايراني طيلة السنوات التي تصدّى لمنصبه. وجرت العادة في تلك السنوات على مصادرة ممتلكات المنتسبين إلى النظام البهلوي المقبور والذين فروا هرباً من مواجهة العقوبات، وذلك لمصلحة الشعب، وتوظيفها في سبيل خدمته. وهناك الكثير منها قد تمَّ مصادرتها بالفعل كما تمَّ تسجيلها في قائمة الممتلكات الحكومية، لكن الخربة هذه لم تُصادر، ربما لأنها منهارة تماماً وقد غزتها الفوضى نتيجة الإهمال، حيث صارت تبدو كسِنٍ مُسوّس بين أسنان فتاة فاتنة تلمع حيوية وبياضاً فلذلك لا يسيل لها لعاب الحكومة، أو ربما لأنها تقع في نهاية زقاق مغلق لا يحتل موقعاً استراتيجياً على واجهة الشوارع الرئيسة كغيرها. هل صادرها القدر كي نسكن فيها أذلاء؟

أسلوب معماري قديم يوحي بأنه قد شُيّد إبّان الحكم القاجاري. شريط كاسيت ممغنط يحمل جزءاً كبيراً من تاريخ تلك الحقبة. لم تسلم من غرفه الثلاث الموزّعة على يمين الساحة ويسارها إلا غرفة واحدة، تقع في الجانب الأيسر من الساحة. بعد

المدخل من اليمين هناك غرفتان مسلوبتا الأبواب والنوافذ، وقد تمّ سدّ بابيهما بالجص والطابوق. الجدران متقشّرة متشقّقة بفعل الشمس والريح، وسقفاهما الخشبيان قد إنهارا فتكوّما بداخلهما على مر السنين إثر هطول الأمطار. صارت الخربة موضعاً لقذف النفايات من جانب الجيران إسفافاً بها، لكن في جهة اليسار ولحسن حظنا التعيس كانت هناك الغرفة الثالثة التي تختلف عن أخواتها بعض الشيء حيث كانت ذات باب خشبي متهالك، دون نافذة، وقليلا ما تكدّست فيها النفايات والقذارات، فكانت أهون من الأخريات حيث ما زالت تحتفظ بشيء مما يمكننا أن نسميه "غرفة".

سقفها الخشبي مازال صامداً، يبدو أنه محافظ على قوامه يمكن الاعتماد عليه لقضاء فترة قصيرة. أما الحياة فلا وجود لها، لا إمارة لوجود كهرباء إلا بعض بقايا أسلاك على الجدران هنا وهناك، ولا حتى مقابس ولا نقاط ما تثبت إن الحياة قد مرّت من هنا مروراً خاطفاً قبل عقود. أما المياه فيبدو إن الخربة هذه قد شُطب من قاموسها مفردة "آب". بقايا الحنفية الملتصقة بحافة الحوض الإسمنتي الذي يتوسط الساحة وعلى الجهة اليسرى منه، تبرز برأسها المبتور شبراً من أعلى من الحافّة، ما يوحي بأن الماء في حكم خبر كان.

-١٢-

في تلك الليلة كنتُ سأبلغ الليلة الثالثة من عمري. كانت السماء حافلة بالنجوم، تمتدُّ على مدى البصر، كأنما نجوم السماء كلّها قد دُعيت لتقيم لي حفل ميلاد بهيج وميضه يغازل الحياة. المدّ الهادر من النجوم يتجاوز غابة النخيل في الجهة المقابلة. على مرمى بصر تقف البصرة على الضفة الأخرى. لاحدود مصطنعة تقسّم النجوم المتشابكة، كما تقسّم النخيل. القمر في بهاء وجلال، يرتدي حلّة ملكية، ينثر أشعّته الفضية لتفترش الأرض. تتراقص أضواءه على مياه شط العرب. بانوراما الضياء والجمال على إيقاع نسيم هادئ. كانت أمي تهدهدني في أحضانها، وهي مبتهجة تتفرّج على عروض النور في السماء. أنظر إلى الأعلى. السعف الأخضر المِطلي بلون القمر الفضي، يتمايل على نوتات النسيم. تثقل أجفاني بعد لحظات فينقلني الوسن إلى النوم والبسمة مرسومة على شفتي في رضى ووداعة.

طلقة عاهرة تثور فتخترق طهر الهدوء. أفزُّ من نومتي في هلع فأزدرد ريقي . يتجمَّد النسيم فزعاً. سرب من حمام القُمري يترك أعشاشه، فيطير هارباً ليختفي في جنح الليل. أنظر إلى الأعلى من جديد، أرى أمي هي الأخرى فزعة، يتهادل سعفها خوفاً. تلوذ النجوم خلف ستار الغبش، ينكمش القمر على نفسه في ذهول. تنحني النخيل لتمدَّ أذرعها، فتحتضن فسائلها الصغيرة. صاحت أمي في احتجاج:

– من هذا القنّاص التافه في صميم الليل؟ ألا يعزُّ عليه هذا العرض الساحر لجمال الكون؟

كان الرد وابلا من الرصاص ... لا حكم إلا للرصاص. سرب من الرصاص يعبر شط العرب وسرب آخر يقابله. يلتحم الرصاص بالرصاص كصليل سيوف تتراشق ظباها. جسر معلق من الحمم، يعتلي شط العرب. حمم بركانية كانت قد اتقدت في القلوب فلفظتها المدافع والهاونات. تسقط رؤوس هنا وهناك. يسقط رأس أمي عند قدمي، لكنها ما زالت تحميني من وابل الرصاص والقنابل . تقطّع سعفها فتناثر حولي . دار رأسي فأغمي عليَّ.

خلال ثوان خاطفة احترق القاطع بأكمله، أما أنا فشعرت وكأنني قشّة أتطاير في الهواء. بقيت للحظات أتقّلب في الأعالي. يا الهي كيف أطير دون أجنحة؟ رأيت كلَّ الجبهات. جيوشاً من كلا الجانبين. رأيت المدافع التي تقذف الحمم كالبراكين، والجنود المرمّلين بالدماء أشلاؤهم تتناثر هنا وهناك. رأيت اختلاط الدم بالبارود والرصاص يكسر العظام والرؤوس تدوسها المجنزرات . رأيت جنرالات الحرب كلّها. من بعيد ... رأيتهم يضحكون ضحكات هيسترية. يخفون مكر عيونهم خلف نظاراتهم الشمسية، مازال بريقها يلمع، لكن النجوم على أكتافهم كانت حمراء... رأيتها كالدم. أردت أن أهبط فأكفَّ عن الطيران. مالي أطير في سماء خطرة، كلّها طائرات وقذائف وصواريخ؟ عليّ أن أحتمي كما يحتمي الآخرون...لكنني سقطت أرضاً قبل أن أهبط بنفسي. في حفرة كبيرة. عميقة مظلمة... كتلك البئر العميقة.

بعد الغارة جمعوا أشلاء الضحايا، أيادٍ و أرجل و... كنت أصرخ طالباً النجدة لكن أحد لا يسمعني ، حتى أنا لا أسمع صوتي. مرّوا من حافّة الحفرة لكنهم لمْ ينتبهوا لي. حاولت أن أرفع يديَّ كي أجلب انتباههم لكن يديَّ كما رجليَّ مدفونتان تحت التراب. وحده المحمّري دخل الحفرة، فجلس عند رأسي باكياً. مدَّ يمناه نحوي. لا أدري لماذا مسّد شعري المتناثر على جبهتي، ولماذا مسح على عينيَّ فأغمضهما وهو يردّد:

– *إنا لله وإنا إليه راجعون.*

صبيحة يوم التالي أحسست بشيء ما يخزُّ في الحبل السرّي الذي يربطني بأمي. فتحت عينيَّ، فالتفت يميناً ويساراً. غابة النخيل كانت قد تحوّلت إلى غابة أعمدة. آلاف الرؤوس تحت الجذوع وفسائل تصرخ في صمت. تحتي كان رجل يفصلني عن أمي بفأس حجري، التمسته ألا يفعل ذلك، لكنه لم يسمعني بل كان يتجاهلني. صرخت أطلبُ النجدة. ليت أمي تستطيع نجدتي لكنها مقطوعة الرأس. أستنجد بالطين، بالأرض التي غذّت أمي وأبي وكلّ النخيل. بُحَّ صوتي من الصراخ وشدّة البكاء . تراخت مفاصلي، دار رأسي فأغمي عليَّ.

في اليوم التالي وجدتُني أهتزُّ وكأن الأرض ترتجُّ تحتي. شوك يحاصرني من كلّ الجوانب فيُدمي وجهي وخاصرتي. كانت الشاحنة الكبيرة محمّلة بمئات الفسائل. كلُّ فسيلة ملفوفة بإزار أحمر مخطّط، لا أعلم عددها لكنني أظن إن كلّ فسائل عبّادان قد تمَّ شحنها. ألتفت إلى الجهات الأربع. كلُّنا أبناء عمومة. أعرفها بالأسماء وبالأسرة وبالقبيلة، كانت تبكي بحُرقة، تُحدّق في الطريق الملتوي بين الجبال والصخور الداكنة. المقصد مجهول والسائق وحده يرسم المصير والمسير. كان يعتمر قبّعة صوفية، لا أعرف لغته لكنني أعرف من سحنته إنه ليس "علوان" صاعود النخيل. كان علوان يعشق النخيل عشقاً لا يُوصف. يعتني بها، يلقّحها في موعدها، ويشذُب سعفها المتخشّب بين وقت وآخر وهو يتحزُم بالكوفيّة . سألته ذات مرّة عن سبب تحزُمه بالكوفيّة فردَّ قائلا:

– هي الخير والبركه . تنطيني القوة والحيل. ورثهه من أبوي وأبوي ورثها من جده. عمرها ميات السنين. تحميني من الحر ومن البرد ومن التراب و... بدونهه أحس بالنگص.

التراب المتطاير من عجلاتها لا يجد محطاً إلا على هياكلنا. غطانا حتى الأسفل فصرنا تماثيل ترابية، غطانا إلا هويتنا. كنا مازلنا ننضح عروبة. أينما نخلة عربية خضراء...

بعد ساعات دخلت الشاحنة في نفق مظلم طويل، جدرانه من حجر قاتم. صوت الصراخ والعويل كان أقوى من هدير المحرك. يومان وليلتان تلهث عجلات الشاحنة في سباق محموم. كأنها تهرّب متاحف أثرية، تهرّب من الأرض. النخلة والأرض صنوان. توقّفتْ، ففتحتوا أبوابها. أنزلونا في أرض تكثر فيها الحجارة. على مدى البصر كانت في تلك الأرض هناك حفر في انتظام وتناسق، تشبه المقابر الجماعية. سيغرسوننا هناك في قبور ذات شواهد:

آبادان/ برهي

آبادان/ بريم

آبادان/ گنتار

...

أشمُّ رائحة زنخة عطنة تنبعث من تربة تلك الأرض. سمعت أحدهم:

– المشروع مدروس بعناية. هنا سيُقام مصنع للتمور وهناك مختبر يعمل على تغيير الجينات.

لم أعرف ماهي الجينات إلا بعد وقت:

– هذه الفسائل يجب أن تتطوّر. يجب أن تنمو هنا وليس في الجنوب وحده.

بدأ التغيير في المفردات والأسماء قبل الجينات. الجنوب... اسم يشي عن اللوثة عندهم. الجنوب، الحر، التخلف، الفقر، العنف ... العربي.

– لكن لكل شجرة تربتها. هي لا تنمو إلا هناك. النخلة جنوبية.

– نعم... لكن... كل شيء ممكن علمياً. غيّروا قانون الطبيعة.

أحضَروا علوان الصّاعود بنفس الهيئة وهو متحرّم بكوفيّته. ومن كارون أنابيب وشذا مدينة الطين عبّوها في مبخّخات وجينات من البلوط أعدوها.

جرّدونا من اللفائف فغرسونا في الحفر. زنخة الأرض تجلب لي الصداع والاختناق.

أختنق... أختنق... أتساعل ... إسودَّ وجهي واحتصر الدم في شرائيني. بخّوا علينا من شذا أرض الطين بالمبخّخات. أستعيد أنفاسي لدقائق. تبدّدَ الشذا في الهواء .أختنق من جديد. يُسعفني علوان الصّاعود. وحده يعلم ماذا يحدث. يفكُّ الكوفيّة من حول ظهره، يلفني بها، أستردُّ أنفاسي لدقائق، هدوء قبل العاصفة. من جديد يخفق قلبي في تسارع، ينفخ علوان في وجهي، يمشّط سعفاتي، يرشُّ عليَّ من ماء كارون، يتناول طرف كوفيّته الملتفّة حولي فيغطّي وجهه فينتحب. دار رأسي فأغمي عليَّ من جديد . لم أفق حتى هذه اللحظة.

-١٣-

كلُّ شيء ثقيل هنا... ثقل الحجر الذي يقبع في قاع النهر فيسدُّ مجراه. أجرُّ أنفاسي بصعوبة. أشعر وكأنني مصاب بالربو، كأن جبال العالم كلّها زُجّت في رئتي. أمدُّ يدي في رئتي كي التقط الأحجار، لكنَّ الأحجار ثقيلة. أين مني ابني حامد يساعدني في إخراجها؟ تتناسل الأحجار في رئتي فتتكاثر. سأرمي بهذه الأحجار خزّان الماء اللعين. صلعة ذلك العجوز الخبيث أراها تقذف بالأحجار في رئتي. أين منّي أنابيب القصب الذهبية كي تمدُّني بالعليل من هواء الهور؟ أين منّي ذلك النسيم العذب الذي يتلاعب بسنابل القمح الذهبية في سهول ميسان؟ ما لهذه الأسوار العالية يضيع الهواء بين فجوات صخورها العملاقة؟

أعيدوني إلى مملكتي ... إلى وطني ... إنني أختنق... أختنق... أعيدوني إلى مدينة الطين ، الطين الذي صُنع منه التاريخ منذ الأزل ... صُنعت منه لبنات الحضارات السرمدية...

أين منّي تلك التربة الأريجية، لتشفي أنفاسي المثقلة بالوجع والخواء؟
أين منّي تلك المدينة التي تأخذني الأحلام كل ليلة إلى أزقتها وبساتينها و شواطئ كرختها؟ أتقزّم في داخلي...
إنني جرم صغير، يودُّ لو أنَّه لاذ بين فجوات الصخور ليختفي تماماً عن ساحة الوجود .
آه ... مبانٍ حجرية... بيوت حجرية... أشجار حجرية مختلفة ألوانها... شوارع حجرية، تصطف على أرصفتها بلاطات حجرية... مشاعر حجرية...
مآذن وقُبب حجرية، يخرج الأذان منها بصوت ملتوٍ أجشّ، يأخذ طريقه بارتطام حجري حتى يخرج من فوهة المآذن مثقلا بالكدمات.
عيون من حجر، تبرز من محاجرها... فترميني بحجر.
أنا ريشة تتقاذفها ريح ماجنة تستقرُّ في نهاية المطاف عند حافّة طريق مجهول النهاية، تنتظر يداً كي تنتشلها من ركام العبث، يد مجهولة... كلُّ شيء محكوم بالعبث. دكّة الإفلاس مصطبتي، أجلس فوقها أضع رأسي بين كفيّ، أتأمّل شريطاً يمرّ من أمامي برتابة. أرى فيه كلَّ البشر، وأنا وحدي الغائب في الشريط، لا أفهم رطانة لغته رغم أنّهُ يبثُّ لي وحدي.
شهور وأنا أقف خارج أسوار هذه المدينة الحجرية. طرقتُ ألف باب وباب. أبت الأبواب أن تفتح بوجهي، وكأنها قد تدرّبت على أن لا تفتح بوجه الغرباء من أمثالي أبداً. كلُّ شيء هنا يذكرني بأنني غريب وبأنني جئت من ديار لاشيء ومنتمٍ إلى لا شيء. النظرات والهمسات والإشارات وحتى الضحكات كلُّها تذكّرني. تتلصّص عليَّ أهلها من فتحات الحيطة والحذر، حتى صارت تقشعرُّ منّي، فتتأفّف بوجهي في عَلن وكأنني مصاب بالجزام أو وافد من بلاد لا يسكنها بشر، أستجدي كرم أصحابها.
مطارد أنا، مطلوب ليس من البشر وحده، كلُّ ما في الوجود هنا يطالبني... يرمقني بنظرات متسائلة... يشعرني بأنني المنبوذ.

لكلِّ شي عيون تلاحقني ليل نهار. كأن جواسيس الدنيا كلّها تتلصّص عليَّ من فتحات الشك والريبة. في الأزقة والطرقات . فوق الأشجار وبين الأحجار ومن فوق الأعمدة وفوق البنايات. منبوذ أنا ... منبوذ... منبوذ...

أنا الذي تراكمت الأختام على جبهته بل اتّسعت لتشمل كلَّ مساحات وجوده. ختم الدخول حين وُلدَ، وختم القدر، وختم الشكّ والريبة، وختم التخاذل، وختم الخيانة، وختم التهاون، وختم التقاعس، وختم الحقارة... أموت أنا كلُّ يوم... في الهامش أكفّن نفسي بنفسي، فأحنّطها فأدفنها.

ليتني أستطيع أن أزيل تلك الأختام من جبهتي ومسامات وجودي، كما أزيل الوسخ من جسدي بقفازات التدليك والصابون، أو حتى التيزاب. سيصبغ حبرها كلَّ أرضية حمّامات العالم وجدرانها. سأبدأ من ختم الولادة... ليتني لم أولد.

البارود والدخان والدم والصراخ والموت... اختلطت ببعض في زوبعة لا يعلم كم ستطول وكم من بلاد الله ستجوب. كلّهم يعلمون إنني أنتمي إلى تلك المدينة التي دبَّت فيها اللعنة و انتشر فيها الصراخ...

ملامحي، لغتي، دمي، ...مهما تخفّيت واخفيت... هنا يلاحقني الصدى فتلك الكوابيس ما زالت تعتمل في روحي كطاحونة هواء لا تكفُّ عن الدوران ما دامت هناك ريح تعبث بها. أتلوّى كلَّ يوم كما يتلوّى المطعون بالسكين في الخاصرة.

يا ترى أيهما أهون؟ أمكسب كان نزوحي من مدينة الطين ؟

هل نجحت في الهروب من قبضة الموت؟ لا أعلم.

لكنني أعلمُ إن الغربة عنوان آخر للموت، موت بطيء لاتعلم إنك تموت. تموت حياً وأنت تعاني وباء الغربة والخواء.

ما أتفه تلك الأبواب! لولا حاجتي إلى لقمة عيش كريمة أحشو بها بطون أطفالي الخاوية، فما طرقتها. هذا زمن مُتخم بالجوع والغربة ومطرَّز بالوجع والضياع، فإن لم تقم الحرب

فتهجّرني وتنشرني على حجارة هذه المدينة نثر الريح المجنونة لأوراق الشجر الخريفي، لما طرقتها أبداً.

مالي أرى العيون هنا قد جحظت من المحاجر، تلاحقني كالمطارد، تتلصّص عليَّ من بعيد و قريب وقد امتطت علامات استفهام بعدد نفوس سكّانها؟

ما لهذه الأشجار والأعمدة والبنايات والشرفات تنظر اليَّ بشيء من الاستغراب و الحذر. تلك الخربة التي أسكنتُ بها أطفالي ... غير ذي سكن دون أبواب وشبابيك لا يسكنها بشر. لا ماء لاكهرباء والشتاء القارس والجوع الكافر. أسمع صدى عوائه ينبعث من بطون أطفالي الخاوية. حنان لا يغمض لها جفن إلا حين يرهقها البكاء ويتعبها الأنين، وجاري لا يردُّ التحية لاصباحاً ولامساءً، يمنع الماء عنّي وكأنني لا استحق الحياة. والآخر يقذف بالنفايات نحوي. ماذا أقول لحمودي حين يوجه إليَّ حزمة من الأسئلة يستفزّني دون قصد ويجعلني أتقطع إرباً إرباً؟ بماذا أجيب حنان عندما تسألني: متى نعود؟ وهي تتأبّط حذاءها فتقف عند باب الخربة؟ وبماذا أجيب نفسي حين تستجوبني لمَ تنظر الجيران إلينا هكذا؟ ولمَ يتهامسون فيما بينهم إنْ رأونا ولمَ ... ولمَ...؟ بماذا أجيب أم حامد حين تقصفني بوابل من الأسئلة في كلِّ يوم تتساءل عن السبب في انقطاع الأخبار عن حامد وفي أي وحدة من الجيش الآن، وكيف يصنع، وماذا يأكل وماذا يشرب ومتى يعود؟

كيف أثبت لهؤلاء الناس إننا بشر مثلهم خُلقنا من لحم ودم، وإننا لسنا قادمين من الفضاء الخارجي؟

كيف أقنعهم أن يكفّوا عن مضايقتنا وألا يتلصّصوا علينا من على سطوح منازلهم وكأننا قردة خلف قضبان السيرك؟

كيف أثبت لهم إننا لسنا من جلب الحرب وإننا لسنا خائنين ولسنا ... ولسنا ...؟

كيف أثبت لهم إننا خسرنا كلَّ ما نمتلك، وإننا أول الخاسرين؟

كيف أفسرُّ لهم الجوع الذي يفتّت أكبادنا والغربة التي تمزّق شرائيننا؟

كيف أثبت لهم إننا لسنا كما تظنّون، فلنا كرامتنا وقيمنا وتراثنا؟
كيف أقنعهم أن ابني الأكبر مفقود منذ شهور لانعرف عن مصيره شيئاً؟
-"نَه"

ردٌّ كنت أسمعه يومياً لعشرات المرّات. صراع ماراثوني يومي للحصول على عمل يؤمّن لقمة عيش. محكوم عليه بالفشل لكن إصرار العدّاء هذا وصلافته الناتجة عن شلاّل العطف الأبوي، يحتّمان عليه مواصلة المحاولات وكأنه أعشى البصر لا يرى في النهايات المظلمة علامات إحباطه. كلُّ ما يدعوه للمواصلة هو بصيص الأمل الذي يشعر به ببصيرة قلب أبوي.

بعض المختفين خلف تلك الأبواب كانوا يكتفون لرفضي بمجرد إشارة رأس عابرة دون أن يجهدوا أنفسهم بالردِّ عليَّ ببعض المفردات. تلك الكوفيّة التي تعتمر رأسي كانت عندهم رمزاً منبوذاً، يمثّل الآخر المحمّل بشتّى أنواع السلبيات. وكان من خلف بعض الأبواب يأتيني الردُّ بإشفاق مصطنع، بل أقرب إلى التحقير منه إلى الإشفاق.

لم أترك مصنعاً أو شركة أو محلا تجارياً صغيراً أو كبيراً إلا وقصدته. في تلك المدينة ذات الأبجدية الحجرية، لم تشقّق الحجارة على قدمي، فتشقّقت إثر طلعاتي الكثيرة بحثاً عن عمل وإن كان بسيطاً شريطة أن لا يخدش كرامتي ولا يتناقض و تاريخي الحافل بالنشاط والمثابرة.

أعود نحو البيت خائباً، وجدتني أنقسم إلى قسمين:

- لم يكن نزوحي من المدينة أمراً صائباً. كان من الأجدر أن أبقى.
- كيف أبقى ونيران الحرب في لهيب متزايد؟ هل أرغب في الموت هناك؟
- أوليس النزوح اغتراباً والاغتراب موت؟

– ومتى كان للنازحين شأن؟ ألم تسمع بمرارة الغربة والقصص الأليمة التي تتناقل عن هموم النازحين ومشاكلهم؟ ألم تسمع قول الشاعر النازح حين يتذكر الوطن عندما تشتدُّ عليه آلام الغربة؟ «يحنُّ إلى أرض الحويزة نازح...[١]» داري همومك واصبر فهذا قضاء وقدر.

– كيف أداري والغربة خانقة كاتمة يصعب فيها النفس؟

– تأقلم مع الوضع...تأقلم.

تكررَّ صدى نصفي الثاني في داخلي:

– ... تأقلم ... تأقلم... تأقلم.

يجب أن أتأقلم مع الوضع. نازح وافد على مدينة لم تعرفه من قبل ولم يعرفها، لها تقاليدها وتراثها. عليَّ أن أتقمص هويتها وتقاليدها. ما لي أصرُّ على ما لاتعترف به هذه المدينة؟ وهل لي الحق أن أتمظهر بما لاتتمظهر به هي؟ *يا غريب كون أديب.*

سأتخذ مظهراً جديداً. ما الضير إذا ما تأقلمتُ مع الظروف، فتمظهرتُ بما تتمظهر به سكُان هذه المدينة، فاعتمرتُ قبُّعة من تلك التي يضعونها على رؤوسم بدل الكوفيّة؟

فحتى الأفاعي تتجدّد، فتستبدل جلودها بين فترة وأخرى وهي في قمة قوتها وبطشها. الأمر بسيط جداً، ما عليَّ إلا أن أرمي بالكوفيّة في ذاكرة النسيان ولو موقتاً وأرمي بلغتي بعيداً. ما ضرورة تلك الكوفيّة ؟ الشمس ليست حادّة هنا حتى تلسع فروة رأسي، فالجو معتدل لطيف، ثمَّ إنني لست أصلعاً ما يبعث بالخجل، فلمَ لا أرمي بها حتى أحصل على عمل؟ أخذت قراري الحازم، سأكمل اليوم فيما أنا عليه وسأخرج غداً باحثاً عن عمل دون أن تعلو رأسي تلك الكوفيّة.

تعبت قدماي. جلست على مصطبة حجرية أمام مبنى مكوّن من عدّة طوابق تتقّدم واجهته السفلية محال تجارية ضخمه. أخذتُ أتحسّس ساقيَّ المنهكين بينما بصري يتفحّص واجهة المبني دون أن أشعر بشاب جلس عند يميني. دبَّ فيَّ الأمل من جديد.

---

١ – الأمير الشاعر علي بن خلف الحويزي

محال تجارية في الطابق الأرضي وأما الطبقات الأخرى فكانت كما أظن، مكاتب إدارية لشركات ووكالات تجارية. عرفت ذلك من اللافتات. قررّت أن أعاود صباحاً وقت الدوام. التفتُ نحو الشاب:

– سلام عليكم.

– سلام.

وإذا به يرميني بنظرة متعالية، يتفحّص ملامحي بتوجّس. لا أعرف لماذا تساءلت عن موعد الدوام الصباحي لتلك المكاتب بينما عرفت ذلك من خلال ما قرأت في الإعلانات الورقية الصغيرة التي ألصقت خلف أبوابها الزجاجية. هممت لطرح سؤالي:

– عفواً متى يبدأ الدوام الصباحي لهذه المكاتب؟

أخذ الشاب ينظر إلى ساعته اليدوية، فتصنّع التأخير عن موعد ما ، حتى ترك المكان متأففاً.

صباح اليوم التالي خرجت لأول مرّة دون كوفيّة. أشعرُ وكأنَّ لاسماء فوقي. يا تُرى كيف مظهري الآن؟ لأكثر من مرّة وددت لو أنني عدت إلى البيت، فجلبت الكوفيّة من جديد.

بائع الجرائد المتجوّل يُلعلع صوته، كالعادة يردّد رؤوس الأنباء للصفحة الأولى من جريدة اطلاعات الصباحية:

– البدء بعمليات بيت المقدّس الرابعة. آلاف القتلى والجرحى في صفوف المعتدين البعثيين. المحمّرة على أبواب التحرير.

كان الخبر طازجاً جداً فباغتني. كيف فاتني وأنا الذي لا يفارق المذياع المحمول يده؟ بي بي سي، مونت كارلو، طهران، الكويت، صباحاً، مساء. حتى أصوات المذيعين والمذيعات أعرفها. وسن النوم لم يطويني في فيافيه إلا بعد منتصف الليل وبعدما أتابع نشرات الأخبار من مختلف المحطّات، ثمَّ التحليلات العسكرية والسياسية، فكنت أنام وأفز على صوت الأنباء.

هببت من مكاني واقفاً، أتلفتُ يميناً ويساراً. بالطبع سأسرُّ لهذا الخبر. نسيت الغرض الذي قد جئت من أجله، فعدت إلى البيت في هرولة. تناولتُ المذياع من على الرّف بعجل وسط ذهول أم حامد وكانت تكنس ساحة البيت بمكنسة من القش.

أدرت الموجة على طهران. كانت تبثُّ نشيداً حربياً، تتخلّله بين فترة وفترة تقارير عن الوضع الميداني. المدن تسقط مثل البشر فتقوم من جديد. بغداد في وسن النوم. سيثبّت كلكامش نوط الشجاعة على صدر أنكيدو، والدودُ لم يخرج من جسده بعد. مادة دسمة لوكالات الأنباء العالمية والأمل المتجدّد للمتباكين عند حائط المبكى. بى بى سي البريطانية تنقل الأخبار وكأن مبنى إذاعتها في الجُفير[١]. مونت كارلو الفرنسية تبثُّ الأخبار بتفاصيل مذهلة. أذناي تلتقطان المفردات بنهم وكأني من كبار القادة في غرفة العمليات الحربية أديرها بحزم وثبات. قاص فكري من جديد في دوّامة شروده، يناجي نفسه في مزيج من القلق والخوف والبهجة:

– هل سيفي صدام فيقدّم مفاتيح البصرة في حال فقده المحمّرة؟

ندت مني أجابة وجدتها متسرّعة:

– لا أظن ذلك فالسياسة هي أن تقول شيئاً وتفعل آخر؟

لكن ما شأني والبصرة الآن؟ هل لاحت ملامح نهاية الحرب؟ هل ستنتهي لنفيق من كابوس خانق قد جثم على صدورنا ؟

أفيق من شرودي لأرى أم حامد تقف أمامي، وقد تركت المكنسة في وسط الساحة. على وجهها الشاحب خيَّم أملان؛ أمل عودتنا وأمل عودة حامد. تمنّت لو كنا نملك التلفاز، فترى حامداً بين الجنود سالماً معافاً يبلغها التحية، أو تلفوناً يرنُّ فيأتيها صوته الدافئ:

– *شتگول أبو حامد؟ صاير شي؟ ماكو خبر عن وليدي؟*

---

١ – قاطع حربي حدثت فيه مواجهات بين الجيشين، يقع بالقرب من الحويزة.

ظننتها ستقصفني بوابل من الأسئلة، أسئلة وددت لو وجهتها لمن يستطيع الردّ. لكن سؤالها كان واحداً، لا يوجد من يُتقن إجابته. أعلم إنني لن أجد أحداً يستطيع ذلك. لن أجد جواباً:

– إن شا الله الدنيه بخير. حامد هم يرجع. بعد اشوي يمكن تشوفينه يدخل من الباب.

دبَّ الأمل في أساريري المنقبضة للحظات،فشرد ذهني يتصفّح ذكريات الماضي الجميل هل ستجدد تلك الذكريات؟

لزمت البيت لم أخرج منه وقد أجّلت طلعاتي المكوكية إلى وقت لاحق ... لا أبداً... لست أنا من أجلّها بل بهجة الأمل بقرب العودة هي التي أجلّتها.

بعد أيام التقطتُ خبراً عاجلا زفّته الإذاعة الوطنية:

– تمَّ تحرير المحمّرة.

اجتاحت الأفراح مدينة الحجر. خرج المواطنون إلى الشوارع، يباركون بعضهم البعض في فرحة عارمة، يوزّعون الحلويات ويطلقون هتافات النصر من فوهة مدافع أفواههم التي صارت لا تعرف من الكلام منذ سنوات إلا يموت فلان ويموت علّان، تفتقر لمفردات يحيى ويعيش. هل تمني الموت قوّة و تمني الحياة ضعف؟ أو ربّما أنا فهمت الأمر بالخطأ، فهذا ما ستثبته الأيام . كنتُ أنا أيضاً من الفرحين. العودة إلى أحضان الوطن أكبر نصر على الإطلاق. أفقتُ من شُرودي، فمددتُ يدي اليمنى أتحسّس الكوفيّة. سرتْ في داخلي شُحنتان من الطمأنينة والفرح، تشابك الفرحان، فتشظيا في عروقي العطشاء. لم يدخل السرور في قلبي منذ أمد طويل، حتى كدت لا أميّز السرور عن غيره. جئت وهي تعلو رأسي وسأعود وهي تعلو رأسي.

ازدادت الوساطات وتظافرت الجهود للجم شبق الحرب التي راحت نارها تتّسع في هشيم الحياة طولا وعرضا. طبع البشر كم هو غريب! إن حاز على مغانم العافية صار متمرداً جحودا وإن مسّه الضرُّ خنع. جنرالات الحروب هم آخر من سيفهم إن الحروب طيش

وإن الطائش هو أول ضحايا طيشه وإن الدنيا ليست إلا تبادل أدوار، وقد لا يفهمون أبداً !!!

-١٤-

قررنا أن نصمد هذه المرّة، فلاسبيل سوى الصمود. لا أعلمُ سبب الإصرار. لا أنا ولا هو. لا أهتم كثيراً بعلامات الاستفهام التي تكاثرت في رأسي.

لمَ الحرب قامت أساساً؟ لمَ طالت بينما قال أبي إنها لن تدوم أكثر من أيام؟ لمَ حامد لمْ يعد، بينما الآخرون عادوا إلى بيوتهم؟ لمَ يخرج أبي صباحاً من كلِّ يوم ويأتي مساءً منهكاً تعباً؟ أيعمل في مكان ما؟ إن كان يعمل فلمَ نسكن بيت خرب؟ لمَ لمْ نذق طعم اللحم منذ شهور؟ ولمَ لا كهرباء لدينا ولا صنبورَ ماء؟ أسعى جاهداً أن أضرب بعلامات الاستفهام تلك بعرض الحائط.

أعناد أطلَّ برأسه من شقاوة المراهقة؟ أم حلّ قد وُلد من رحم جيوبنا الفارغة؟ أم إثبات لذات مراهقة أدخلتها الحرب في غرفة المعتّمة لتحميضها، تتلاعب في ملامحها الطرية لتخرجها كيفما تشاء؟ أي ذات وأنا لا أشعر بها أبدا؟ وقد تكون

مجرد رغبة عبثية لا تهدف إلا للعبث، كرغبة الريح الجامحة حين تهبُّ فتتلاعب بتلك البطانية المهترئة المسدلة على باب بيتنا الخرب. ما أشبهنا بها! ما أبشع العبث! يا ترى هل تتراقص اعتزازاً بأداءها دور الباب الخشبي المخلوع؟ ألهذا أراها تتناغم مع مُجون الريح أحيانا؟ لم يكن بيتنا شاطئ بحر أزرق كما في الأفلام، تفترش رصيفه الرمال الملونة وتحفّه أشجار الجوز الباسقة، تمتد على شاطئه وتحت الشمسيات فتيات بسيقان وصدور عاجية عارية وأجسام قبلتها الشمس لتكون برنزية؟ فلمَ هذه النشوة والاهتزاز حين هُبوب النسيم؟ هل النشوة وليدة الشعور بالخواء كما أشعر أنا في هذا العالم الخاوي؟ حقاً لمَ هذا الزهو كلّه؟

في الصباح الباكر التقينا على رأس الزقاق الملتوي قبل أن يخرج أبي. يخرج أغلب الصباحات ثمَّ يعود مُنهكاً يشكو ألماً في رجلية، فتضع أمي طستاً بماء دافئ تحت قدمية فتفركهما بلين فيسند أبي رأسه على الجدار ليغمض عينيه في تودّد أليم. لا أعرف أين يعمل. منذ أن سكننا هذه الخربة وهو يخرج صباحاً أغلب الأيام ويعود مساءاً. لمْ أسأل أمي عن طبيعة عمله. كما لمْ أخبره عمّا أنوي فعله. ثناني عن إخباره عمله الذي لابدَّ وإنه كان شاقّاً يعود على إثره منهكاً تعباً.

أمسك المحمري بيدي فأخرجني من الحفرة. كان قد دُعي لخدمة الاحتياط عند قيام الحرب. مدَّ يده نحو جيبه الأيسر. أخرج منه صورة لإبنته ذات الثلاث سنوات. كانت الشظية التي مزّقت قلبه لمْ تُبق من الصورة شيئاً. أطرق رأسه حزناً. طلب مني أن أطير معه. أدار رأسه صوب قريته فطُرنا نحوها فبلغناها في لحظات. كان بيته المتواضع قد دُمّر تماماً. القرى والمدينة تنوء تحت ثقل الموت والدمار. اتّجه نحو الشمال . ودّعني ليبحث عن أهله. سيجدها نائمة في حضن أمها كملاك. سيقّبلها على جبينها وسترتسم على شفتيها البرعميتين ابتسامة بريئة جميلة تظنُّ إنَّ الملاك قد قبّلها. لمْ ينتبه أحد لقدومنا لا القوى المتقاتلة ولا الناس النازحة في الطرق

كأننا لسنا موجودين. لكن الجثث المتناثرة في القواطع على يميننا ويسارنا كانت تؤدّي لنا التحية العسكرية.

أسمع ذلك الصوت مجدّداً. يُشبه صوت أمي. بدا أكثر وضوحاً . يناديني للقدوم نحوه:

- *يماااااااا حاااااامد*

عليَّ أن أفتّش عن مصدر ذلك الصوت. عن أهلي عن أبي عن حمودي عن حنان. لنْ أراجع مقرّات الجيش بحثاً عنهم ولنْ أسأل عن مكانهم من هذا وذاك. صوت أمي هو الدليل . يجذبني نحوه كالمغناطيس.

رفضت أمي الفكرة بشدّة. نشقت بعدما لطمت خدّها حين علمت من بين طيّات كلامي إنني سأذهب هناك للمرّة الثانية، فلامتني على عدم إخباري لها من قبل. مازلتُ في عينها "حمودي" الصغير من المبكّر جدّاً أنْ يلعب دور الكبار. هدّأتها وأقنعتها بصعوبة مدعياً أنَّ طبيعة العمل سهلة هذه المرّة. لمْ تقتنع بالكامل لكنّها سكتت على مضض بعد ما مكثت لثوانٍ تُرضي نفسها بتقليب بشاعة صور الجوع وهي تُربتُ بلطف على صدر حنان والتي كانت تشكو حمّةً ظهرت في السعال وإحمرار الخدّين. في حضنها نامت بصعوبة. الحمّة والسعال، هاتان العلامتان بيّنتان فقط أمّا الصُداع ووجع المفاصل فهذان ما تشعر بهما وحدها، ربّما لاتستطيع بثّه إلينا كما نفهمه.

باب الغرفة لمْ يتمكّن من ردع البرد القارس لتلك الشتوية القاسية. يتسرّب الهواء من جوانبه ومن أعلاه ومن تحته ومن بين أضلعه المتقشّرة. كأن البرد هو الآخر يبحث مثلنا عن مكان دافئ يلوذ به، بعدما يختار أحداً منا ليُعشعش في داخله فيلزمه الفراش ساقطاً بين مخالب السعال وبراثن الحُمّة وأنين الألم وكانت حنان الاختيار الأسهل.

ما أنْ خرج نصفي من فتحة الباب حتى أغلقته خلفي بسرعة تاركاً نصفي الآخر يستلُّ نفسه مضغوطاً بين المصراعين الخشبيين. ارتديتُ بصعوبة حذائي المتخشّب. الكعب الأيمن للحذاء يكاد يعزل. تجاهلته فالكعب في الرِجل أكثر مقاومة للبرد من الأصابع. رباطه قصير فربطه لمْ يأخذ وقتاً. منذ صغري وأنا أكره الرباط الطويل فكنت أقّصه فأجعل الواحد اثنين. فادتني هذه الخصلة في هذا الوقت المتعب. رفعت ياقة جاكيتي إلى الأعلى. ستتخشب كأذني المحمرّتين. رفعتُ مصراع الباب المخلوع فوضعته جانباً. كان أبي في نهاية المساء من كل ليلة يضعه عرضاً على برميل بعد البطانية. ليس ساتراً ولامانعاً من دخول الأغيار، بل مجرد قطعة خشبية نالت منها الشمس كما نال منها البرد والمطر. دوره عبثي كما كثير من الأشياء أللهم إلا إذا صنعنا لها أدواراً أو حكم مفبركة. أزحت البطانية جانباً. كانت ساكنة تماماً. البرد الذي كان يخرج بخاراً من فمي قد أخرسها فلمْ ألاحظ ذاك الاهتزار والاعتزاز السابقين. ربّما اكتشفْ هذا الصباح إنَّها عبثاً كانت تهتز وترقص. لا أعرف ما الذي يجعل البعض واصفاً العلم عند اهتزازه على السارية بالحيوية والنشاط وهو في مطبات الريح، تنسف كرامته نسفاً فيلهث محاولا إنهاء الحالة؟ من أين تأتي الحيوية ومن أين ذاك النشاط لقطعة قماش تتحكّم بها ريح مجنونة تتلاعب بها كيفما تشاء؟

الريح البطانية الباب المخلوع المدينة الحجرية الحرب الناس النظرات ذلك المخزن اللعين تلك المأذن والقبب الخضراء التي تصم آذان السماء عند الفجر و... كلُّ شيء عبثي هنا فاقد للمعنى. حتى الظل الذي كان يلازمني في مدينة الطين لمْ أره، فقد تخلّى عنى في طريق النزوح من المدينة أو عند بواباتها الحجرية. لاأعرف أين هو الآن وأين يجلس القرفصاء وفي أي زاوية من هذا العالم؟ وكيف يسدّد نظراته في شرود نحو افق بعيد؟

استكان من الشاي ونصف رغيف من الخبز، كان ذلك فطوري الصباحي الذي أعدّته لي أمي. عند منعطف الزقاق الملتوي لمحت أحد الجيران عائداً إلى البيت

برغيف من خبز السنگك وطاسة تفوح منها رائحة الهريسة. صبّحته بالخير فتجاهلني. وددتُ لو أني أضرب بكفيَّ تحت الطاسة فالصقها بوجهه. حين مرَّ من أمامي إمتدَّ خيط من رائحة الهريسة ليستفزَّ معدتي المشاكسة وشبقي للحمها المهروس فوجدتني أستدير نحوها أداري شهيتي برائحتها الزكية، لكنني رغبتُ أنْ أركل مؤخرته الكبيرة برجلي اليمني التي سجلت هدفاً في مرمى الفريق المدرسي المقابل، فعبرت المرمى لترتطم بصلعة رئيس المدرسة وهو في باب مكتبه. الذنب لم يكن ذنبي فان كان للمرمى شباكاً مناسباً لما قبّلت كرتي صلعة الرئيس.

بعد أيام عدتُ للقاطع أودّع أصحابي. كان مدمراً تماماً إثر القصف العنيف الذي تعرّض له. منهم من قُتل ومنهم من هرب. مررتُ بقيادة القاطع. كان المقر مدمراً هو الآخر. أوراق مبعثرة هنا وهناك . سمعتُ أحدهم يقيّم الوضع، يدوّن أسماء القتلى والجرحى. لم أكن بينهم. لكني سمعته مخاطباً شخصاً آخر وهو يبتعد:

– هناك مفقودان . للآن لمْ نعثر عليهما.

هل أنا من المفقودين؟ غريب هذا الأمر. لاحياً ولا ميتاً؟. ضائع بين الموت والحياة؟. أردتُ أن أحتجّ، فرفعت صوتاً لا أسمعه:

– هل أنا حيٌّ؟

لكنه لمْ يسمعني.

– هل أنا ميت؟

لمْ يسمعني أيضاً

بقيت حائراً . أميّت أنا أم حيٌّ؟

أخذني الزقاق الملتوي إلى الشارع. كان علي جالساً على عتبة إحدى المحال التجارية المغلقة، محتضناً رجليه مسنداً رأسه على ركبتيه. الحرب التي بعدتنا فرمت بنا في مدينة الحجر عرّفتني به في الأيام الأولي من الثانوية. سرعان ما ارتقت صداقتنا فصارت حميمية. أعرف الكثير من أسراره كما يعرف الكثير عني. تعيد الحرب

ترتيب أوراق الحياة فتجعل البعيد قريباً والقريب بعيداً. تكشف لنا ظواهر كانت تتستّر خلف يافطة الوهم. مثلي من أبناء النازحين. كان أبوه من مفقودي الحرب. حين أخبرني عن قصة أبيه قفز من داخلي سؤال مستفز:

– وهل في الحرب هناك من هو غير مفقود؟

يعيش مع أمه في بيت عمّه. كان طائشاً متقلباً في تصرفاته. لا إعرف السر في تقربنا نحو بعض مع ما يوجد من اختلاف في الطباع. لابد وإنَّ هناك قاسماً مشتركاً أجهله. هل أنا طائش كما يتهمني أبي أحياناً حينما يغضب؟ لم يكن ذلك مسقط الرأس بالتأكيد فأنا خفاجي وهو عباداني، ولم تكن اللغة ولا المراهقة أو شيء كهذا. هذا أيضاً من ضمن الأسئلة التي سأتركها للزمن فهو القادر على الإجابة عن الكثير من الأحجيات.

حين لمحني من بعيد نهض من مكانه. لسبب تأخري وجّه إلى بعض الشتائم بطريقته. كان في عينيه سوال لم ينزل إلى فمه كما كان عندي نفس السؤال: يا ترى هل سنحصل على عمل اليوم؟ وما هو؟ سروال رمادي باهت اللون وحذاء مهترئ قطني وجاكيتة سوداء أحالت الشمس لونها إلى بُنّي. أظنّه مثلي لا يملك سوى مايلبسه الآن.

حول ساحة الدوّار كالعادة يتناثر دون انتظام جمع كثير من العمّال، يجتمون بانتظار يد تنتشلهم من دّوامة البطالة. منهم من يحمل رفشاً ومنهم من في يده معول ومنهم أعزل عن آليات العمل. فيهم الكبير في السن من الصعب أن ينجز عملا ومنهم الشاب القوي. لكن القليل من في أعمارنا. كلّ على شاكلته. أفاغنة وأهوازيون لاجئون ... والأهوازيون هم الأغلبية. كان الطلب على العمال كثيراً في مدينة الحجر، فهي في إتّساع وتطوّر ومدينة الطين تنهش الحروب في لحمها الهزيل لتمحيها عن الوجود. ما أنْ تقف سيارة على مقربة من المكان حتى يهرع إليها العشرات من العمّال في سباق محموم. يتدافعون فيما بينهم أحياناً وفي النهاية كلمة

الفصل تكون للمقاول أو صاحب العمل، عندها يفوز المحظوظ منهم فوزاً عظيماً. كنا قد اعتزلنا عن الآخرين. لم نصنع كما يصنعون. فاتتنا فرص كثيرة لتقاعسنا عن محاكاتهم. موجودون وغير موجودين في نفس الوقت. نرى مايدور هناك ولا يرانا أحد. كالحرب تماماً نراها تقوم فتذبحنا وتقتلنا وفي نفس الوقت لا ترانا أبداً. بل هنا حرب أيضاً. تقوم الحرب هنا لحفظ الوجود بينما هناك في ديارنا لاجتثاث الوجود. قررنا أنْ نفعل مثلما يفعل الآخرون. لابدَّ أنْ نجرّب حظنا. وقفت بالقرب منا سيارة وانيت. قبل أن ينزل منها رجل اتضح لنا من ملابسه إنَّه بنّاء، هرعنا نحوه قبل الآخرين معلنين في إصرار عن رغبتنا في العمل معه. نظر الرجل نحونا نظرة فاحصة، فاستعلائية:

– لا أريد أطفالا، أريد عمالا.

أدار وجهه نحو جهة أخرى. وجوه تتقافز حوله وأياد تتجاذبه، فاختار ثلاثة رجال أركبهم في مؤخّرة الوانيت فانطلق. تراجعنا إلى حيث كنا واقفين متأبطين خيبتنا كما تراجع الآخرون ناكسين رؤوسهم، يندبون في السر تعاسة حظوظهم. في الظاهر لم نكن نأسف على ما فاتنا لكن في الباطن فالأمر يختلف.

– خيرها بغيرهه . يمكن شغلة تعبة. خل ايولي

قالها علي وقد لمستُ في صوته عدم الاقتناع. نظرتُ إليه وأنا أخاطبه في سري:

– لاتجلّب

من المؤكّد أنَّه سمع ما أقول. اعتبرنا دون قناعة إنَّ تلك الفرصة لاتناسبنا كما كانت فرصة أمس الأول، فقد تكون شاقّة متعبة لانقوى عليها. منْ مثلنا في هذا العمر يستطيع أنْ يعمل في تقطيع الصخور ونقلها مسافة عشرات الأمتار حتى أساس البناء؟ لعلَّ الفرصة القادمة أفضل ممّا فاتتنا فقد تكون في عمل التبييض بالجص أو فرش الأرض بالموزاييك أو السيراميك. تراجعنا إلى الخلف فجلسنا على عتبة إحدى الأبواب للمحال التجارية المغلقة بعد ما بدأ الملل يتسرّب فينا وشيء من القنوط.

وضعتُ رأسي بين ركبتيَّ ويداي تتشابكان ببعض وفكري شارد أبحث عمّا يخرجني من هذه الرتابة. وكزني علي بمرفقه يستنهضني من جديد:

–گوم . هذا واحد جاي. يالله اركض.

وثبنا وثبة واحدة فهرعنا نحوه وكنا هذه المرة قبل الآخرين. قال إنَّه يريد عاملين لعمل الكاشي الجداري. أعلنا استعدادنا للذهاب معه، لكن صغر حجمنا في عينيه خيّب أملنا. لمْ يكترث بنا فاختار رجلين كانا قد تقدّما نحوه بعد ما دفعا المتجمهرين بقوة خارقة يميناً ويساراً. بقينا على هذا الحال حتى انتهى الوقت المألوف لتأجير العمّال. اعتلت الشمس وفُتحت المحال التجارية أبوابها ما يعني التفرّق، فتفرّقت العمّال حتى خلا الدوّار منهم تماماً.

– شنسوي هسه؟ هَمْ نرجع للخرابه؟

الفكرة لمْ ترق له فاقترح أنْ نتسكّع في الشوارع. كان علي محقاً فالتسكّع قد يكون العلاج الوحيد لقتل الفراغ. الشارع هو المكان الوحيد للتسكّع حيث لا يرفض طلباً لأحد. كالمضيف يرحب بالجميع، لاسيّما المراهقين في أعمارنا، لا يحتاج مالا ولا اختصاصاً أو جهداً. لعلَّ هناك ما ينسيني الخربة والخواء، عينان عسليتان أو شفتان زهريتان أو صدر يرتج نعومة، فأنتعش ولو للحظات قليلة.

– الحلوات هنا اليوم

كانت هذه حكمة من حكمه الكثيرة وقد راقت لي بالطبع. تسكّعنا ساعة في السوق. عاكسنا بعض الفتيات، فوجدنا أنفسنا أمام صالة سينما.

شعرتُ بيد تتحسّس كتفي فتجذبها بشيء من الحذر وأنا أنظر إلى الإعلان المصوّر للفلم المعروض. التفتُ فإذا برجل ثلاثيني وكأنني أعرفه:

– إنتَ...؟ إنتَ مو حمود ابن جارنه ؟

ملامحه بدت غريبة لكن الصوت بدا لي وكأنني أعرفه. أخذ فكري يتجوّل لثوان في صور الماضي المتكلّسة حتى عرفته. كان من جيراننا القدماء، بيته كان يقع على بعد شارعين من بيتنا.

– *شصاير بيك؟ ماعرفتك.!!!*

في لحظة واحدة متزامنة خرجت هذه العبارة منا. لا أعرف هلْ دارت في خاطره أولا ؟ أم في خاطري أنا؟ تصافحنا في حرارة الحُرقة. غزا الشيب رأسه والتعب أطلَّ برأسه من عينيه. سألني عن أوضاعنا وعن مكان استقرارنا:

– *ما اعرف عناوين الشوارع والدروب. بس أدرى وين كاعدين. لو تخليني بملايين البيوت أعرف وين . خرابتنا ما تضيّع.*

حزن حين أخبرته بذلك. أخبرني إنه يترزّق من بيع البطم[١]:

– *بس اللاجئين وحّدهم يشترون مني.*

– *ليش مافتحت محل للكباب مثل شغلتك قبل الحرب.*

– *الإيجار غالي وهذول ما يشترون من الغربا.*

مرَّ رجل يرافقه ابنه الصغير:

– بكم الكوب؟

– بتومان

– اوف... حقّاً أنتم اللاجئون سبب غلاء الأسعار وصعوبة المعيشة.

لا أعرف كيف عرف أنَّ جاري من اللاجئين. صار السؤال محور حديث ساخن يتجاذبان طرفيه أمي وأبي، بعد ما طرحته أنا فانسحبت فوراً لا أريد إرهاق نفسي بما هو متعب. قالت أمي عرف ذلك الرجل جارنا لأنَّه كان يبيع البطم، فهذا العمل البسيط لا يقوم به مواطنو هذه المدينة، وقال أبي ربَّما عرفه من ملابسه الرثة. في

---

١ – بَنَك أوبَنه في الفارسية.جُقجُق بالدارجة الأهوازية.

نهاية المطاف اتفقا على أنَّ ملامح جارنا هي التي أبانت للرجل إنه من اللاجئين. فاللاجيء في ملامحه سحنة الضياع وشحوب الفقر والعوز.

لكن كيف نقطع التذاكر والجيوب تصفر؟ تذكّرت إنَّ قليلا من المال مازلت أحتفظ به وكانت أمي قد أعطتني إيّاه أمس أشتري به خبزاً. كان الخبز على وشك النفاذ، فالخباز بعد ما أطفأ الفُرن وقت الظهيرة، قسّم المتبقي من الخبز على الزبائن ليشمل الجميع ولو بأعداد أقلَّ ممّا يطلبون. حصلتُ أنا على خمسة أرغفة وقليل من المال بقى في يدي. لكنه... لا يكفي لقطع تذكرتين. من ابتسامته البلهاء وبطانة جيوبه التي أخرجها كاللسان المتشقق اقتنعتُ إننا لنْ نتمكّن من دخول الصالة. تركني عند الباب للحظات فتحدّث مع رَجل شبّاك التذاكر. عاد بعد قليل ومعه تذكرتان فتمكّنا من الدخول. لا أعرفُ ماذا فعل؟ هل تدارك الأمر بالكلام المعسول الذي طالما عرفته به؟ سأكتشف ذلك لاحقاً. لمْ نستمتع كثيراً رغم أنَّ الفيلم كان أجنبياً. الأفلام الإيرانية التي تمَّ انتاجها قبل الثورة كانت تعتبر ساقطة فاجرة تنشر المجون والرذيلة وكانت الأفلام الثورية حينها قيد الانتاج لما تُنتج بعد. تمَّ حذف الكثير من المشاهد العاطفية للفيلم، فالعواطف في الحرب ممنوعة فما بالك المشاهد التي تتخلّلها الإشارات الجنسية لسوفيا لورن الجميلة وإغراءاتها حسب ما أخبرنا به فيما بعد بائع التذاكر الشاب. أضف إلى ذلك الخربشات التي محت ملامح وجهها والممثلات الجميلات الأخريات. تقلّص وقت عرض الفيلم الذي كان من المفروض أن يمتدَّ على مدى الساعتين إلى أقلَّ من ساعة. كنا في مدينة الطين نتقمّص الشخصيات السينمائية. تلك التي تقوم بحركات بهلوانية فترانا نقوم بأداء حركاتها حينما نخرج من صالة السينما. لا أعلم لمَ لمْ نرغب الآن في هذا التقمّص؟ أ لأننا كبرنا؟ أمْ لأننا لسنا موجودين أساساً؟ أمْ لأننا تقمّصنا ضياعاً لا يمكن خلعه؟

-١٥-

كما كنت في صغري، أحبُّ ألجلوس جنب الشبابيك. يجذبني مغناطيسها فأجد نفسي دونما إرادة أتطلّع إلى جانبها الآخر. كألسنة النار التي تتراقص على قامات الحطب في ليلة شتوية باردة، حيث تجتذب العيون نحوها دون إرادة. ليتهم كانوا أسموها أبواباً وليس شبابيك أو نوافذ. همزة وصل تربط الداخل بالخارج فتزيح العائق ما بينهما في توحّد ووداد. الغرفة التي لاتوجد فيها نافذة هي سجن بحد ذاته. رطبة كدكّة غسل الموتى .

رغم إننا قد غطّينا الشبّاك المهشّم زجاجه بقطع من الكرتون المقوّى، إلا إنَّ البرد القارس كان أعتى من أنْ يتراجع عن مهاجمتنا. كان الشتاء الأزرق يصول دون منازع كما كانت تجول موجات الخواء البلهاء في أعيننا.

- قيام...

دخل مدرّس الأدب الفارسي. في السنة الثانية من لجوئنا إلى مدينة الحجر، فتحت مديرية التعليم ثانوية مسائية للبنين، جمعت فيها أبناء اللاجئين دون غيرهم. أمرنا بوضع

كتاب الأدب الفارسي أمامنا وقد نسي أنَّ أي من الطلاب لا يملكه، بلْ لا يملك أي من الكتب الدراسية أساساً. حين لامس الاستغراب في وجوهنا تذكّر أنَّ مديرية التعليم لمْ توزّع الكتب الدراسية بين الطلاب من أبناء اللاجئين، حيث اكتفت بتوزيعها على أبناء المواطنين فقط. *حائط نصيص*. كان علينا وحدنا الحصول على شرف القناعة وثواب الصبر ومقاومة المشاكل الناتجة عن الحرب. فنحن من سُلالة المهاجرين في سبيل الله.

راح المدرس يُملي علينا نصوصاً نقوم بكتابتها على الورق لنعيدها إليه في الجلسة القادمة بعد ما حفظناها عن ظهر قلب كالببقاء. مجرد آلات طابعة . قرأ أشعاراً لحافظ أحد شعراء الفرس وكانت عن الربيع والزهور وتغريدات الطيور، والصقيع المتهجّم من خلف الكرتونات يدبغ الوجوه فترتعد له المفاصل. طير الحياة في داخلي يتجمّد دون أمل، ينظر إلى الربيع الذي باتت صورته متقطعّة ضبابية. الحصة الثانية كانت لمدرس العلوم الدينية. تحدّث دون انقطاع كشريط ممغنط عن الزهد والتقوى وعن حروب صدر الإسلام والمهاجرين في سبيل الله وعن أهمية المقاومة وتحمّل الحرمان حتى دقَّ الجرس. تذكّرت جدي قبل سنوات حين كان يوصي أبي بمساعدة المتضرّرين من الفيضانات الذين لجأوا إلينا من القرى المجاورة بكلِّ ما أتيح لنا:

– *صير مثل الأنصار . قسمو بيوتهم وكل ما عدهم ويه المهاجرين. هما مسلمين ويحبون النبي. المسلم يساعد المسلم.*

وددت أنْ أسأل المدرّس عن هذه المعلومة التاريخية. مَن الأنصار ومَن المهاجرين؟ مِن فحوى كلامه عرفت نحن المهاجرون وأهل مدينة الحجر هم الأنصار. لكن هل قامت الأنصار بواجبها؟ لنْ أنسى تلك المصادمة التي حصلت بيني وبين مدرّس التاريخ. كم أكره التاريخ وأكره تفاهاته.

– العصر الحجري هو عصر ما قبل التاريخ. استعمل فيه الإنسان الحجارة لصنع الأدوات.

– أستاذ... نحن الآن نعيش في العصر الحجري ؟

أثار السؤال ضحكات الجميع.

– كيف؟ هلْ تهزئ بي؟ (قالها المدرّس غاضباً) أخرج من الصف... كان من الأفضل أنْ تبقى في حضيرتك.

– لا أبداً... نحن نعيش الآن في خربة حجرية. بين العقارب والديدان. لا ماء عندنا ولا كهرباء. نتجمَّد ليلا من شدّة البرد. نحبُّ الشمس لا لضوئها فقط، بلْ لدفئها. نصطف أمامها صباحاً كالتماثيل كي تُذيب البرد المتجمّد بداخلنا.

– أنتم السبب . كان الأجدر بكم أنْ تبقوا في دياركم

كنت أنوي الردَّ عليه لكن جوابه الأخير كان فيه شيء جعلني أتراجع. ظلّت العبارة ترنُّ في أذني على مدى أيام.... "أنتم السبب . كان الأجدر بكم أنْ تبقوا في دياركم".

في حصة الرياضة، يرمى الناظر نحونا كرة من البلاستيك ويطلب منا أنْ نلعب في الباحة الخلفية. أرض مليئة بالحصي والحُفر، تشبه طريق النزوح من الحرب والذي دمّرته قذائف الهاون وأشرطة المجنزرات. الكدمات والجروح في نهاية اللعبة كانت أكثر من الأهداف التي تبادلت بين الفريقين المدرسيين. لمْ ألعب كرة القدم إلا مرّة واحدة، سبّبت لي بمشاكل مع المدرسة. وددتُ أنْ أذهب مع علي لنلعب كرة الطاولة لكنه لمْ يحضر ذلك اليوم. لمْ تكن الطاولة خشبية بل بُنيت من الإسمنت وقد تمَّ طلاءها باللون الأزرق يتوسّطها بدل الشبكة طابور من طابوق المثقّب. المضارب كانت دفاترنا، أمّا الكرة نفسها فكنا نشتريها بالمشاركة وإن كان ثمنها قليلا نسبياً. غالباً ما كانت الحصّة الأخيرة مهملة فأسميناها "الشردة". الآخِر مهمل دائماً. ثانويتنا في آخِر أحياء المدينة والسنة الدراسية بدأت في آخِر الوقت والمدرّسون يحضرون الصفوف في وقت متأخر. علّمتني رتابة المدرسة وجوها الممل أنْ أستلَّ نفسي منها بشتى الذرائع فكنت أشارك علي في *الشردة* التي صارت تدريجياً غير مختصة بالحصّة الأخيرة. كان علي له من الخفة حيث يتسلّق حائط الثانوية بلمح البصر، كقِرَدة السيرك. لكنه لمْ يحضر المدرسة ذلك اليوم فقلقت

لغيابه. قُبيل انتهاء الحصّة الثانية وقف الناظر على باب الصفِّ ليخبرنا عن اجتماع تحضيري حول الانتخابات التشريعية التي من المقرَّر إجراءها بعد غد الجمعة وإنَّ علينا مغادرة المدرسة بعد انتهاء هذه الحصّة فوراً. كنت قد سمعت بالانتخابات الرئاسية في السنة الأولى لانتصار الثورة الإسلامية وكنت قاصراً حينها لا يُسمح لي بالتصويت. حين ذهبت أمي برفقة عمّتي للتصويت عبر صندوق الاقتراع، أوصاهما أبي بالتصويت لبني صدر وكان المرشّح الأقوى والأبرز بين المرشحين القلائل:

– *ننسه أسمه خويه... اكتب النه اسمه بورقه .*

– *مايحتاج ورقه ...گولي بني وتمن صدري !!!*

– *ياااااع !!!!*

وددتُ لو سألته سؤالا:

– أيسمحون لنا أنْ ننتخب دونما نحمل هوية؟

لكني ندمت، فلمَ طرحت هذا السؤال البائخ. كيف يسمحون لنا بالتصويت بينما فقدنا هوياتنا في الطريق؟

لو كان حامد حاضراً هنا لشارك في الانتخابات وصوّت لأحد المرشّحين، كما شارك في الانتخابات الأولى قبل الحرب.

مهرب بالمجان. دفعني شعور غريب لأشكر الناظر في قرارة نفسي مع إنّه يكرهني فيعتبر الشكر تهكماً. ما أنْ خرجت حتى وجدتني أتّجه نحو ثانوية البنات. كان علي قد اصطحبني معه لأكثر من مرّة. أراني وجوها جميلة تنسيني ظلمات الخربة وبشاعة الحرب وفداعة الموت. كنت أتنحّى جانباً لأتفرّج على حركاته الطائشة حين يعاكس الطالبات الجميلات بحرفية. اليوم سرتْ في داخلي رغبة مشاكسة أنْ أجّرب لوحدي الوقوف أمام الثانوية وأنْ أختبر نفسي وأكتشف مدى مهاراتي.

رأيتها ذات مرة مع صديقتها تمسك بكتبها تقطع طريقها نحو الثانوية. أعجبني جمالها وقوام هندامها. ياترى أهذا الإعجاب هوالذي جرجرني فأتى بي إلى هنا. هل أراها اليوم بعد انتهاء الدوام المدرسي؟ سألت نفسي وكأنني أخاطب أحدا:

-كم بقى لانتهاء الدوام المدرسي؟

حدّثني علي أكثر من مرّة بأنَّه تسلّق سور الثانوية ليتلصّص على الطالبات اللاتي كن يمارسن حصة الرياضة في الساحة وهن سافرات دون حجاب. لمْ أصدّقه حينها فهو يتفنّن في الكذب. لاأعرف ما السبب الذي يجعلني أصدّق أكاذيبه؟ أ لأنَّ الكذب حلو المذاق أحياناً؟ أو لأنَّه خلاف الواقع الذي يتّسم بالمرارة والتفاهة؟ كان كالغرد يستطيع تسلّق الأسوار والجدران بسهولة، فهذا الطيش ربَّما جعلني أميل إلى تصديق أكاذيبه. أخبرني ذات مرّة عن اكتشاف أمره وملاحقة البواب له، لكنه لمْ يتمكّن منه. كانت الثانوية تختص بالطالبات من العوائل المواطنة:

-"الحادية عشر وربعاً". قالها بعد ما رمقني بنظرة فاحصة طالتني من رأسي حتى قدميَّ.

فراغ آخر يجب سدّه. غيّرت اتجاهي. لابد أنْ أرى علياً فأنا غلق عليه. في اليوم الأخير كان مهموماً، كثير الشرود. رغم إنَّه كان يكذب كثيراً حيث يمتزج كذبه بصدقه، إلا إنَّه خفيف الظل، يسليني ويملأ عليَّ الفراغات. لا يهمني الصدق والكذب عند البشر. الكذب هو الوجه الآخر للصدق كما أنَّ الصدق قد يكون قبيحاً أحياناً. رغم شقاوته وطيشه إلا إنَّه كان أقرب صديق لي، إذ وجدت فيه من النقاوة والصفاء وهذا ما أعجبني فيه. الصفاء يعكس عبثية الداخل. ربَّما هناك خطب ما. توجّهت نحو بيتهم، كانوا يسكنون في كوخ من التنك، في زاوية من خلفية حديقة عامة. بين الفينة والأخرى تعترضهم البلدية، تريد طردهم من المكان لكنهم كانوا يقاومون. رفضوا مقترح البلدية بنقلهم إلى المدرسة التي كنا قد سكنّا فيها عند مجيئنا إلى مدينة الحجر. الضجة والازدحام بلغا فيها مبلغاً لا يُطاق. طرقتُ الباب طرقة واحدة، شعرت إنَّها تكفي فالثانية ستطيح بالقصر التنكي!!. تهادى إليَّ صوت عمّه:

- *ياهو ؟ عله كيفك ...اشصاير؟*
- *عمي آنه حمودي . علي هنا؟*
- *ها حمودي ؟ شرايد؟ طلع من الصبح للمدرسة. ليش عطلت المدرسة؟*

كأنني سمعت صوتاً خافتاً لأمرأة من مسافة أبعد :

– عساه مارد.

كما حدّست فهناك مشاكل جعلت علياً حزيناً شارد الذهن.

بلّغت أبي بخوف إنَّ ناظر المدرسة يدعوه للحضور. قلت إنَّ الأمر يتعلّق بجلسة الأولياء الشهرية التي لم يحضرها كعادته. كنت أعلم إنَّ ذلك المدرّس الخبيث سيشكوني عند الناظر الذي يبحث هو الآخر عن ذرائع لإيذائي. حين عاد أبي من لقاء الناظر كان غاضباً حزيناً. كان سبب الغضب واضحاً لي لذلك تركت البيت لساعات حتى يهدأ. أمّا الحزن فعرفته من كلام أمي لاحقاً. كان أبي قد طلب من الناظر لقاء مدرّس التاريخ لكن الناظر أخبره أنَّ المدرّس في إجازة. أردف قائلا إنَّ جثمان ابن أخيه المفقود في العمليات الحربية الأخيرة قد تمَّ العثور عليه، فراح يستلمه وأخوه.

تراجعت عن مطلبي لأعود أدراجي نحو المدرسة وأنا أشعر إنَّ اليوم يختلف عن ذي قبل. هكذا شعوري كان. اتخذت موقعاً مناسباً بعيداً عن الأنظار مشرفاً على الساحة الأمامية للمدرسة كقناص ينتظر خروج الغزالة من كِناسها. مررت أصابعي على شعري الكثيف لأمسّده، فأتحسّس حالة ملابسي البسيطة. تمنيت في حزن لو أنني كنت أملك بعض المال لأرتّب لنفسي مظهراً يثير إعجابها. واجهة البوتيكات ومحلات الملابس مرّت أمامي كشريط فلمي. تيشرتات جميلة بماركات مختلفة وبنطلونات أنيقة. وجدتني أتأوّه. تذكّرت بدلة الجينز والكويت و... لا أعلم على ماذا استند ذلك الرجل في قولته بأنَّ اللاجئين سبب الغلاء وارتفاع الأسعار؟ أمام بوّابة المدرسة أقف متردداً. هل أبقى لأمتّع ناظري بمنظرها البهي أم أترك هذه السفاهة لعلي وحده؟ ماذا لو رآني أحد ما فأخبر أبي عمّا

أقوم به؟ لكن من الذي سيعرفني في هذه المدينة الكبيرة. نحن اللاجئون لانعرف بعضنا البعض فكيف يعرفنا المواطنون من مدينة الحجر؟

كان شيئا ما يشدّني إلى المكان فيصرُّ عليَّ بالبقاء. وآخر أضعف منه بكثير يريدني أنْ أنسحب. بينما أبحث عن الإجابة بين طيّات الكلمات، رصدتها برفقة زميلتها وهي تخرج من البوّابة ماسكة كتبها باليمنى تضمّها إلى صدرها العامر بالحيوية.

شعرتُ بدقات قلبي وهي تمرُّ من أمامي. تزايدت الدقّات حتى كاد قلبي يقفز من مكانه. قوام متوازن في جسم رشيق . وجه بريء ملائكي، زاده بعض النمش على الوجنتين الحمراوين جمالا. عينان دافئتان بنيتان فيهما مغناطيس سحر لا يُقاوم. يعلوهما حاجبان من غير تشذيب لكنهما كسيفين صقيلين على قمة أنف يحاول العزل بينهما في استواء. و شفتان زهريتان تمتلئ السفلى أكثر من العليا بقليل. تسمّرت في مكاني إثر ذلك الشعور الرهيب حين التقت عيناي بعينيها. شعور لا أعرف حقيقته حينها. لكني كنت واثقاً من أنَّه كان شعورا جميلا.

الآن عرفت السرَّ في مغامرات علي وتسلّقه لسور المدرسة وتقبّل مخاطره!! ليتني رافقته من قبل وتسلّقت معه أسوار الثانويات كلِّها. لم أنتبه إلى جمال الكون قبل اللحظة. ازداد اعتزازي بالطين ما دام الإنسان قد خُلق منه؟ أيمكن أنْ يكون الطين بهذا الجمال؟ هذا الشعور هو الشعور الحقيقي الوحيد في داخلي فسواه خواء وضياع. الشعور الوحيد الذي أنتمي إليه في هذه المدينة التي لا أنتمي إلى شيء فيها أبداً.

تمنيت لو أنني كنت تلك الكتب التي تضمّها إلى صدرها فأدفن رأسي بين النهدين العاجيين. وجدتني أتبعها دون إرادتي وأنا أتلفّت خائفاً من أنْ أنكشف. كيف يكون شكلها وهي عارية؟ أظنني من الآن فصاعداً سأتلصّص من فوهة تلك القُبة الزجاجية لحمّام النساء بالقرب منا. لابدَّ وإنها ستأتي للحمّام. لكن كيف ذلك وأنا لا أعلم بموعد مجيئها؟

لم أفقْ من تهويماتي إلا بعد ما اصطدمت بأحد المارّة. تحاشيت مفردات قذفها فمه نحوي. كلُّ الظن إنَّها كانت مسيئة. لابدَّ وإنَّه قد اختار مفردات تناسب ملامح اللاجيء.

ياترى ما ردّها إنْ حدّثتها بكلمة؟ هلْ تتجاوب معي عبر بسمة من تلك الشفتين الزهريتين؟ أم إنها ستغضب وستقطّب حاجبيها المقوّسين وستكيل لي أبشع أنواع السباب والشتائم؟ وما الضير؟ فلتفعل!!! من يعرفني في هذه المدينة؟ فأنا المغمور بين شقوق أحجارها. دع عنك المثل *يا غريب كون أديب*. لكلِّ حادث حديث.

اضطربتُ فتلعثم لساني حين أردت محادثتها عند منعطف الشارع الفرعي. لمحت في وجهها الدائري مزيجاً من الخجل والتوتّر وقد ازدادت إحمراراً في الوجنتين، حين علمتْ إنني أتبعها، كما ازدادني ذلك الإحمرار مزيداً من ذلك الشعور الجميل الذي جرّني خلفها. رتّبتُ كلمات وجدتها مناسبة، لكنها بقت محبوسة في فمي حيث عطفت يميناً فدخلتْ باباً مواراباً فأغلقته خلفها. علمت حينها إنها بلغت بيتها وأنا الغبي بقيتُ أتلعثم في مجرد مفردات.

-١٦-

ساعة سيكو اليدوية التي كان خالي عامر قد أرسلها لي ضمن الچسوة ، ضاعت مني في الطريق. لم أبذل جهداً كبيراً للبحث عنها، حتى ساعة أبي لا نعلم ما الذي حلَّ بها. لم نهتم بها كثيراً. أستغرب من وجود المحال الكبيرة لبيع الساعات اليدوية أو الجدارية أو المنبهات في مدينة الحجر، لكن اليوم ولأول مرّة نمت في داخلي رغبة في الإطلاع عن الوقت. دقائق قُبيل خروجنا من المدينة، نفذت بطاريات الساعة الجدارية فتيبّست عقاربها دون حراك. وجدتني مستغرباً حين ندى مني السؤال:

- كم الساعة الآن؟

لمْ أتجرّأ أنْ أسأل الأسطا عن الوقت. كان رجلا طويل القامة في الخمسين تقريباً وكان عبوساً حاد المزاج، يغضب لأبسط الأمور. فمجرّد السؤال عن الوقت سيطيح بمكانتي عنده والتي واهية عنده أساساً. الأفضل أنْ أتجنّب بعض المشاكل. أظن إننا على مقربة من الظهر فالشمس قلَّت ظلالها واحتدَّ وهجها بعض الشيء. كنتُ

جائعاً ومتعباً إلى حد ما، لكن التعب اليوم أقلُّ ممّا كنت أنتظر. كان أحد العمال يحمل ساعة يدوية بامكاني أنْ أسأله لكنه ليس جنبي، يعمل في الطابق التحتي من البناية. رحل العمران من مدينة الطين ليحلَّ في مدينة الحجر. زحف الحجر متقدماً نحو الطين ليتراجع الآخر. حاولت مراراً أنْ أختلس النظر إلى ساعة الأسطا اليدوية لكني فشلت. مساعده الذي يعمل جنبه لا يمتلك ساعة. كان المساعد وبحكم عمله متناغماً مع الأسطا، وكان الأسطا واقفاً يمدُّ الجص بالمالج في حركات سريعة تنم عن خبرة ومهارة. كانا يعملان بصمت وكأنما يتحدّثان معاً عبر أمواج كهرومغناطسية. ليت أخي حامد كان هنا، فنعمل معاً . أنا أقدِّم له الجص وهو يمدُّه بالمالج. نعمل معاً ليرتاح أبي من عمله المتعب. لكن لا ...أخي حامد يصلح أنْ يكون موظفاً كبيراً، يعمل تحت إمرته عدد من الموظفين. سيعود أخي حامد... آمل أنْ يعود.

علي يفعل كما أمره الأسطا. يفتح أكياس الجص فيغرف منها بالمجرفة فيضعها في بطن المنخل، ثمَّ يقوم بنخله حتى تسقط الحبات الخشنة ويبقى الناعم منه، يكدّسه فوق بعض على جانب بالقرب مني. الحرب تشبه المنخل. نخلتنا فاختارت منا من هو يصلح أنْ يكون مقتولا أو جريحاً أو لاجئاً. من هنا تبدأ مهمتي فكنت حلقة وصل بين علي من جهة والأسطا ومساعده الشاب من جهة أخرى. أجلس أرضاً فأضيف الماء إلى مسحوق الجص الذي أغرف منه بالمجرفة فأخلطه ببعض حتى يصبح سائلا متماسكاً. إلى هنا كان العمل لابأس به، يكفي أنْ أضع يدي اليمنى في الخليط فأحركها بارتجاج. الصعوبة تكمن في تنظيف التاوة من بقايا الجص العالقة في داخلها والذي يتيبّس بسرعة غريبة. كان عليَّ إزالتها من التاوة بشكل يؤهّلها من جديد لتعود نظيفة مصقولة. أقدم الخليط وقتما يطلبه الأسطا، في تاوة مصقولة نظيفة يرتجُّ خليط الجص فيها. تبيّن لي فيما بعد إنَّ الصعوبة تكمن في موضع آخر.

يغضب الأسطا لسبب ودون سبب لاسيّما لو تحدثنا بالعربية. يظن إننا نستهزء به أو نتآمر عليه. خاطبنا أكثر من مرّة، يستفسر عمّا نقول بشيء من الحنق والريبة. يغضب حين يلمس قصوراً منا، يراه عرقلة للعمل فيكيل لنا ما طاب له من الشتائم والسباب. أسرع غالباً برش مسحوق إضافي من الجص إنْ كان قليلا أو إضافة كمّية مناسبة من الماء إنْ كان يتحتّم عليَّ ذلك وكانت صعوبة العمل هنا. وددت لو أهبُّ غاضباً من مكاني بوجه الأسطا حين يصرخ بوجهي يلومني على قصور يبدر مني، أركله في مؤخرته العظمية، لكنني سرعان ما أداري نفسي بشتّى الطرق. يتهامسان فيما بينهم بكلمات لا أفهمها. لكن للوجه لاسيّما العينين لغة لاتحتاج إلى جهد لفهمهما. كانت مهمّة علي حسب تقسيم المهام أسهل من مهمتي، فما عليه إلا أنْ يغربل الجص ويكوّمه جانباً لكني لمْ أحتج.

أخرج كفي الأيمن من بطن السائل المرتج. أهمُّ كي أرفع التاوة لأضعها عند قدمي الأسطا. تظهر على سطح الجص فُقّاعات تتلاصق ببعض في شكل غريب. وجه أبيض جصي يبرز من التحام الفُقّاعات. ترتسم ابتسامة ماكرة على شفتيه. تلمع عيناه خبثاً خلف نظّارة شمسية و قد اصطبقها بياض الجص فمنحها بياضاً. يتطوّر الأمر، تتّسع الابتسامة فتنفجر ضحكاً. الضحك الهستيري يدوّي المكان. أتراجع مذعوراً إلى الخلف:

– ماهذا ...يا الهي؟

الوجه الجصي يخرج من التاوه فيتقدّم... مازال الوجه الجصي يتقدّم نحوي... يتقدّم نحوي... أدقّق في ملامحه. حليق الذقن ببشرة صافية يشبه العقيد الذي تحدّث مع أبي. الجدار الخلفي للغرفة وحده يضع حدّاً لتراجعي. في ذعر أتلفّت يميناً ويساراً وقد ألصقت كفيَّ بالأرضية، علّني أجد مهرباً. لا أحد سواي. مازال الوجه الجصي يتقدّم نحوي. أمدُّ يدي كي التقط حجارة ما من تلك التي تتواجد في المكان. التقط

واحدة . أضربه بالحجارة لكنها لمْ تردعه عن التقدّم. من خلف النظّارة عيناه تنظران إلى كفي الأيمن.

– إنَّه ليس لك. عده إليَّ !

قالها بنبرة تحوّلت إلى حنق وغضب. أرفع كفي اليمنى بوجل لأدقّق فيها فاقرّبها نحو عينيَّ غير مصدقاً ما يحصل. أردف الوجه قائلا:

– أ لاترى إنَّها من لوني؟ لقد لوّنتها بالأبيض. هي من جص وأنت من طين. إبقَ أنت من طين. كلُّ شيء هنا حجري حتى الجص. فأصله من حجر تمَّ تكسيره وطحنه. أنصحك أنْ تتحجّر... تحجّر...تحجّر بالكامل. فالحجر أقوى وأفضل من الطين.

– لكنها كفّي أنا. لا يحقُّ لك ذلك. خذْ الجص وبياضه وأترك كفّي.

يضحك ضحكات أشبه بالجنون:

– ها ها ها ها ها ها.... لا يمكن.

خاطبت إله الطين ملتمساً النجدة. تحرّكت النخوة في جوهره. شعرتُ وكأن الطين في يديَّ يتحرّك حتى صار يرتجُّ ثمَّ يرتعد كما يرتعد البركان في جوفه. رغم إنَّ الجص المتيبّس حولها قد شلَّها فأفقدها الحركة، إلا إنني كنت أشعر بمحاولات قوية لكسر تلك التراكمات الجصية. شحنة من القوة اندفعت في الطين. تحرّكت أصابعي وتكوّرت قبضتي الطينية، ثمَّ انبسط الكف وانفرجت الأصابع. تكسّر الجص فتهشّم كالزجاج تحت قدميَّ. صرخة ألم مدوية تخرج من فم الوجه الجصي:

– آ آ آ آ آ آ آ ه

مازلت مذعوراً دون حراك. تخرج كفان من فمه المنفرج، تمسكان بالشدقين فتفتحهما على آخر المصراع. يطلُّ الأسطا برأس ينضح حنقاً وغضباً:

– ياعديم الفائدة... أين الجص؟

ثمَّ وابل من المفردات المسيئة تُقذف نحوي من فوهة مدفع لا يكلُّ ولا يملُّ. يصيب البعض منها كياني وغروري ويرتطم البعض الآخر بالجص بعد ما تيبّس في قاع التاوة. أنظر تارة للأسطا وتارة لمساعده ثمَّ أعود أدراجي أبحث عن ذلك الوجه اللعين فلمْ أجده. لا في الظلام ولا في الحجر المنتشر في المكان. اشتدَّ غضب الأسطا وجنَّ جنونه، فكاد يرميني بالتاوة الأخرى. اعتذرت في مهادنة لدرء المشاكل.

ألتفتُ إلى اليسار ثمَّ إلى اليمين فلمْ أجد علياً. لكنني شعرت بدفء يده التي لمست ظهري في تودّد وتعاطف في وقت أحتاج إليه وأنا لمْ أصحو من مضاعفات كابوسي بعد.

رفض الأسطا مقترح مساعده في إنهاء العمل قبل موعده وإرجاءه إلى وقت لاحق معللا ذلك إلى إصرار صاحب العمل على التسليم في وقته المحدّد والا فهناك غرامات ستلتف حول عنقه بالإضافة إلى سمعته في الوسط المهني.

بعد قليل، بان في ملامح وجهه التردّد والاضطراب، فالرجل بين فكّي ضغوط صاحب العمل التي تحتّم عليه المواصلة رغم العرقلة التي يتلقاها مني بين حين وحين. أعلن انتهاء الدّوام في ضيق وتأفّف بعد ما ألقى نظرة فاحصة على عقارب ساعته اليدوية فتنفسنا الصعداء ظنا منا إنَّ مهمتنا قد انتهت. هممنا أنْ نغسل أيدينا تتويجاً لنصر مكلّل ببعض الإخفاقات والمصادمات، لكننا صُدمنا حين أمرنا الأسطا بغسل التاوات والموالج وأدوات التبييض الأخرى دون أنْ يطلب ذلك من مساعده، فما لنا إلا أنْ نطيع وقد استغرق ذلك وقتاً لا يُستهان به.

-١٧-

المئات كانوا يجتمعون عند البوّابة الكبيرة للمبنى. البعض منهم قد تسلّق أسوارها، يقف كالتمثال من فوقها يظلل بالكفين على عينيه. عيون تراقب جهة النخيل وأخرى تراقب فمي. كأنهم لا يرون مني إلا فمي. لا يموج في تلك الأعين إلا سوال واحد، تذوب بداخله عشرات الأسئلة. جبهتي المثقوبة بالشظية ودمي المتخثّر على نحري أسكتهم عن السؤال. أتركُ السؤال المجهوض لأدخل البوّابة. أفتّش عن ذلك الصوت الغريب الذي يناديني منذ شهور. يا تُرى هلْ يخونني إحساسي هذه المرّة. المبنى الكبير بطوابقه الثلاثة مكتظ بالأشباح. وجوه ذات ملامح واحدة، عيون حمراء ذابلة، كأنها تقنّعت بقناع واحد تمَّ استنساخها من بعض. قناع رمادي غامق كلون تلك السحابة المتجهّمة التي خيَّمت على مدينتهم فأمطرت موتاً. الموت الذي قد أسماه العقيد الحرب بعدما مكيجه بطلاء الإطار الذي يحفُّ نظّارته الذهبية ووهج النجوم التي تومض على منكبيه ليبدو وسيماً.

تتخاطف تلك الأشباح من أمامي يميناً ويساراً وهي تحدّق فيَّ وكأنها تتضرّع إلى من يخرجها من عالم الأشباح لترى الحياة بعيداً عن رتابة الموت وملل الجمود. لامشاعر يعتريها ولا أحاسيس سوى الترقّب والانتظار. خلقت كي تكون في انتظار... انتظار العودة.

العجوز الذي وجدته واقفاً عند بوابة المدرسة كان لاصقاً في جمود مذياعه اليدوي الصغير إلى شحمة أذنه وقد لفَّ رأسه بالكوفيّة. ها هو الآن أجده بنفس الحالة مطرق الرأس عند مدخل الغرفة المقابلة. وهناك ...وهناك...التفتُ إلى يميني، أهرعُ نحو شبّاك مهشّم زجاجه. أنظر في ذعر إلى البوّابة التي مررتُ منها قبل قليل، أراه مازال هناك. ينظر إليَّ وهو يضع السبّابة على فمه. أعودُ إلى الذي عند الغرفة، أقترب إليه لأستمع أنا الآخر ما ينقله المذياع وماتدور من أخبار تتناقلها المحطات الإخبارية العالمية. على بعد أمتار منه أرى نفس العجوز يقف عند عتبة غرفة أخرى، يسيل الدم من أذنيه. يلوّح لي بأنْ أقترب منه. لكنه لمْ يكترث بي حين اقتربت:

– هنا بي بي سي ... شششششششش... هنا بي بي سي...شششش.

العجوز فاغر فاه، متفاعل مع الأحداث لعلّه يفهم أكثر مني لغة الإذاعات. ترتفع حاجباه لتتّسع حدقتا عينيه تارة ويهبطان تارة حسب الموقف وتطوّرات الأخبار. تارة تندُّ منه زفرة مفاجئة أو شهقة تفقز فجأة تارة أخرى.

– هنا مونت كارلو... اشششششششش. هنا مونت كارلو ...شششششش.

أزجُّ بنفسي خلسة داخل غرفة أخرى. رجل يمسك خرطوشة، يضيف حرف X على جدارها الرمادي الغامق. أرى مئات الحروف هناك. ستمتليء كلُّ جدران المبنى بحروف X. يسيح من تلك الحروف دم قان نحو الأسفل. رائحته تشبه رائحة دمي. نما فضول واستغراب بداخلي. أدقّق في تلك الشظية التي تبرز برأسها من وسط الدم المتخثّر. كأنني أعرفها!!! أمدُّ يدي لأتحسّسها. ما زالت حارّة. أتحسّس الثقب في أعلى جبهتي. أما زالت الشظية هناك؟ أسحبها. نفس الشظية. كلُّ الشظايا واحدة فهي من سلالة الدان.

تقتل دون تمييز. برأس سبابتي التقط شيئاً من الدم. تزايد فضولي لأشمَّ رائحة الدم. ليست غريبة. في غرابة أدقّق فى شرائيني. أما زالت تحمل دماً؟ أمْ أنَّ الدم قد نزف تماماً؟ يا الهي!!! ...كانت شرائيني خالية من الدم. نهر قد جفَّ منذ سنوات فصار طريقاً مُسفلتاً . أزجُّ برأسي داخل الشرايين. أرى رتلين من القطع العسكرية ذهاباً وإياباً . الذاهب ضاحك والعائد باك.كلُّ شيء مصطبغ بالدم. المدرّعات والمجنزرات والخوذات والمدافع. السواد في الأعلام وحده اللون المخالف. أظنني عرفت سبب غياب الدم في شرائيني. الجيوش المتحاربة قد صادرت دمي لتصبغ به ما لديها من أيدلوجيات.

– شششششششش. يقول الرجل العجوز وقد وضع سبابته أمام فمه. وكأن دوي تلك المجنزرات المنبعث من شرايبني عرقل السماع لديه، فظنها قادمة لتسكب شبق الموت على رأسه من جديد.

– ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟

– لا أعرف.

– من أنتم؟

– لا أعرف.

يا ترى ما سر ذلك الصوت الذي يدعوني للحضور في هذا المكان؟ يناديني وكأنه يخرج من إمراة سقطت في بئر وهي تهوى إلى قاعها. مهلا... إنَّه يشبه صوت أمي. هلْ هي أمي حقاً؟ ها هو الصوت يتهادى إلى مسمعي من جديد لكنه بوضوح أكثر هذه المرة. شعرت بأنَّه قريب فهو على بعد أمتار مني فقط. أبحث عن مصدره، فقد اجتذبني كالمغناطيس، وأنا أسكن في بلاد بعيدة جمعت الأولين والآخرين. والآخرون مازالوا يتوافدون. أفتّش الغرف غرفة غرفة. أدخل غرفة أخرى. شبّاك مهشّم زجاجه. صقيع مراوغ يستغل الشروخ والثقوب المنتشرة على مساحات قطع مقوى الكرتون. عبثاً تحاول تلك المساحات أنْ تلعب دور الزجاج المهشّم على صدر الشبّاك. يجتاح القصيع فضاء

الغرفة، يتجمّد البخار القابع في الأفواه. يترسّب متدلياً من السقف الواطيء ليشكل قُبباً مخروطية كما في الكهوف.

أنفاس موبوءة بالزكام وسعال متواصل يشبه العواء ينبعث من أعماق بطون الأطفال الخاوية. البطانيات البالية التي تفترش الأرض هنا وهناك هي الأخرى جمّدها الصقيع. لونها الرمادي قد استحال إلى بياض. وجدتها كالأكفان. في غرفة أخرى رأيت إمرأة تهدهد طفلتها الميتة وقد مدّتها على طول رجليها في محاولة لتنويمها. كانت الأم قد غطت الطفلة بعباءتها التي حول الصقيع لونها الأسود الفاحم إلى بياض. على جبهة الطفلة مفتاح ألصقته الأم. قالت لي بصوت متهدّج وهي ناكسة الرأس لمْ أر وجهها:

– *تميمه تحفظ ابنيتي من شر الحرب وتبعدهه عن الموت*

تهزُّ الأم رجليها النحيفتين بهدوء، تصدر وشوشة دون أنْ تقدّم سبابتها أمام فمها كما كان يفعل ذلك العجوز. كانت كفّاها مبتورتين:

– شششششششش... *دلل لول يا يما دلل لول* .....شششششش

ما وجدتُ المبنى يشبه المدرسة. كان أشبه بسفينة نوح دفعها الطوفان من بلاد موبوءة دون مقصد محدّد. تجرى على بؤر من الرمال المتحرّكة. لاتحمل إلا الأشباح وقد اجتمعت فيها من كلِّ بلاد الطين. عند البوّابة الخلفية للمبنى والتي لا يرغب أحد بالوقوف عليها، يأتي جيب يقف عندها ملطّخ بوحول حمراء. تهرع الأعين من خلف الشرفات تاركة محاجرها. أرى العقيد نفسه يعتلي مقدّمته. نظّاراته ذات الحافّة الذهبية ما زالت تُخفي عينيه. لم تكن ذهبية كما كانت سابقاً. السائق جنبه مبتور الرأس، يُمسك بالمقود والضابط الجالس في الخلف محنط كالمومياء. بمكبّر الصوت يزفُّ العقيد أخباراً طازجة:

– تكبَّد العدو خسائر بشرية كبيرة. قتلى بالآلاف وجرحى بمئات الآلاف. ستنتهي الحرب اليوم.

لاحديث عن مدينة الطين وكأنها ليست موجودة على خارطة الوجود. أخبار مكرّرة حفظوها عن ظهر قلب. تعود الأعين خائبة نحو المحاجر. عليها أنْ تحملهم حتى يحط الطوفان أوزاره. لكني لمْ أجد لها نوحاً. تتقاذفها أمواج الرمال فتكاد تلتهمها. وقعت مراراً على حافة الغرق.

– يا ترى لمَ يحدّقون في ملامحي؟ هلْ ظنوا إنني نوح الذى يبحثون عنه؟ أمْ إنَّهم عطشى لأخبار تُزفُّ إليهم تتحدّث عن قرب العودة وإنْ كانت كاذبة أو تتنبّأ رجماً بالغيب، كما تنبأ العقيد بها؟ تكاثرت الأشباح حتى ملأت المكان والعدد مازال مرشحاً للتصعيد. صارت تلتصق بأرض السفينة كالجراد وعلى جدرانها والسقوف. عليَّ أنْ أنتبه جيداً كي لا أدوس شبحاً. لمحت شبحين يحاولان أنْ يرجعا بعقارب الساعة العاطلة على الجدار إلى الوراء. حتى الممرّات والمدرّجات تكتظ بالأشباح. صدى الخواء يتسرّب من الجدران ويتناثر من السقوف. عبثاً نوحاً يطلبون وغراباً يأتيهم بخبر يقين. لا يقين هنا إلا الضياع ولا شيء في مدينة الطين إلا الموت.

ها أنا الآن أجدُ أمي في الغرفة الأخيرة. تقف قُبالة القِبلة. ملتفة بعبائتها وقد بدت لي رمادية هي الأخرى. أراها تصلي جالسة. تربتها، مفتاح بيتنا الصديء. وحبُات مسبحتها رصاصات من مدينة الطين:

– حيَّ على الوطن. حيَّ على خير المدن.

بصّرتُ في الجهة التي تتّجه نحوها. رأيتُ الكعبة. ملفوفة بكوفيّة تشبه كوفيّة أبي أو كوفيّة ذاك العجوز المتلصق بالمذياع أو تلك التي يتحزّم بها علوان صاعود النخيل. في زواياها أربع نخلات يتدلى الرصاص من أعذاقها المتدلية. قد نال منها الصقيع فبدت بلورية. من فوقها ظلال خافتة صفراء وأعمدة من الدخان والبارود. تُعقّب على الصلاة. تعدُّ حبّات المسبحة. خمس وتسعون رصاصة من مدينة الطين:

– وطن...وطن...وطن...وطن...

أستدير فأقف أمامها. لمْ أرها منذ أنْ دخلتُ الخدمة العسكرية. تغيّر ملامح وجهها كثيراً. شعوب وتجاعيد وذُبول. كلون تلك الأشباح تماماً. أدقّق في وجهها. مازال مؤطّراً بالرقّة والحنان. ترفع ببصرها نحوي. وطن... وطن... و...و...و...

تتسمّر عيناها في عينيَّ في ذهول واضطراب، بين فرح وبكاء. كانت نظرتها إلي تختلف عن نظرة الأشباح الآخرين. لاأظن إنَّها تريد مني خبراً عن الوطن، عندها أجتمعُ أنا والوطن. العَبرة ترقرقت حتى انسكبت دموعاً، سالت دموعها في حُرقة صامتة كالحِمم التي تنحدر في صمت من أعالي البركان. امتدّت يداها نحوي في بطء وهما ترتجفان. لمْ تصدّق ما تراه. أخذتني بالأحضان. تهاطلت دموعها الساخنة كالميزاب. دموعي أقلُّ سخونة. بل لا دموع لي. في البلاد التي جئت منها لا دموع ولابكاء، فنحن الباقون وغيرنا القادمون. تصطدم السفينة بالمطبّات فتغطس في الرمال وهزّة مهولة تفصلنا عن بعض. تنفصل عني في شهقة رهيبة. تبتعد عني ويداها ما زالتا منفردتين:

– يما////////// حا//////////مد يما//////////

-١٨-

بُعيد مغيب الشمس كانت هناك يد معروقة تُمسك مصباحاً يدوياً، ينشر الضوء ببطئ على السلالم الإسمنتية. يصعد الضوء الأعلى فالأعلى. يد أخرى تُمسك حافّة الدرابزين، يُتمتم صاحبها بعض الكلمات الغامضة التي تشبه الشفرات. ظهر على سطح البيت عجوز محدودب الظهر. عينان جاحظتان تحت حاجبين سميكين وصلعة يحفُّها شعر أكثر بياضاً من الحاجبين وقد غطّى الأذنين. لغد كخصية يتدلّى من تحت الحنك وتجاعيد استباحت الجبهة وكانت أضعاف منها انتشرت تحت العينين وبين نتوءات الوجنتين. ما أنْ بلغ السطح حتى تقدّم بثقل نحو خزّان الماء الرابض على أقصى الجانب الأيمن للسطح. همَّ نحوه بقدمي سبعيني. كان السطح باحته الخلفية يخلو هناك مع نفسه فيداعب نوستالوجيا ذكريات باهتة ما زالت تقاوم دون أنْ تسلّم نفسها لداء النسيان. من منا تخلو حياته من النوستالوجيا؟ سيل الماضي الجارف لا يُقاوم لاسيّما في العقود

الأخيرة من العمر. كان وجهه يقتمُّ حين يتذكّر تفاصيل ذلك الحادث الأليم فيتغيّر سلوكه فيصبح كأنه ليس هو. يصعد السطح يومياً عند المغيب. كان عليه أنْ يتأكّد ما إذا كانت أوامره الصارمة تمُّ تنفيذها حرفياً. مستوى المياه في الخزّان... المياه ... المياه... بظهره المقوّس كالحرباء يعتلي مصطبة خشبية كان قد وضعها عند الخزّان:

– مجنونة هذه البنت. كلُّ الظن إنَّها تمدُّهم بالمياه... تفعلها خلف ظهري....

حال وقوفه على الخزّان أدخل يده في فتحة جيبه فأخرج مفتاحاً كان قد ربطه بخيط غليظ يتدلّى نحو الأسفل حتى لامس الجيب التحتي للقميص المقلّم ذي أربعة جيوب. ألقمتْ يده اليُمنى القفل بالمفتاح ففتح غطاء الخزّان. مدَّ عنقه ليطلَّ بداخله بوجه مدبوغ. ألقي نظرة فاحصة في جوفه من خلف نظارة سميكة يحاول تثبيتها بين الفينة والأخرى. أقحم في الخزان عموداً خشبياً يشبه المسطرة كان قد وضع عليه خطوطاً وأعداداً مرتّبة. في جوف الخزّان ارتطم رأس العمود بقاعه فأخرجه. وضعه تحت ضوء المصباح اليدوي. يساعده ضوء خافت يتسرب من لمبة تتدلّى من طارمة بيته. يقرّب نظارته السميكة ليدقّق في أعداده. جعل العمود الخشبي المدرّج تجاه ساحة خربتنا . عين تراقب أعداد العمود الخشبي والأخرى تدور بخبث وفضول في محجرها نحونا، فتقوم بعملية مسح دائري على ساحة بيتنا الخرب المكشوفة أمامه كراحة يده. علّها تعثر على إثبات لتلك الجريمة التي لاتُغتفر. هلْ سيثبت ما يدّعيه بعد ما راودته الشكوك؟

رغم أنَّ هذا المشهد المتكرر يومياً يراه العجوز أمراً عادياً وحقاً من حقوقه الشخصية، إلا إنَّه لم يكن بالنسبة لنا أمراً مريحاً أبداً. لا يمكنني أنْ أسكت على ذلك. فأنا البركان الذي فعّلته هموم الحرب ومشاكلها، فأصبح على وشك الانفجار، فان طغى ستغطي ذلك العجوز حممه الحارقة. رغم ذلك كنت أحاول أنْ أتحاشاه حين أرى المشهد بالصدفة أحياناً. كنت أداري الموقف وأقنع نفسي بحجج قد لاتكون مقنعة لغيري. لعلَّ الغربة تحتّم علي المماشاة والمهادنة ولعلَّ حرمة الجورة التي تفترش جناحها حتى أربعين جاراً. غريب عدد الأربعين. يثقل حضوره كاهل الطقوس. تقف عنده كلُّ الامتدادات.

مُترع هذا العدد بالدلالات التي تمتدُّ جذورها إلى سفوح التقديس فتتشعّب في وديان وتضاريس التأويلات. صفره كدولاب حين يتدحرج من أعالي تلاله فمن الصعب الصمود أمامه. يكتمل العقل في الأربعين ثمَّ في فتور رويداً رويداً والنهاية انتكاس في العمر وأمراض تزحف شيئاً فشيئاً. على بابا أصرَّ أنْ تكون رفاقه أربعين. على موعد موسى مع ربه في أربعين ليلة مصيرية، لاتنتقص ولاتزداد. هلْ كان ملتزماً بالعدد المقدّس؟ مظلة يمشي تحتها المتقدّسون. تاهت اليهود أربعين عاماً فجابت فيها الفلوات والصحاري كالجرذان. يعود التاريخ نفسه في قالب مهزلة، لكن بالنسبة لنا عاد التاريخ على شكل مأساة وأيما مأساة!!!

تاه العرب في القرن العشرين، بالرغم من إنهم يمتلكون أضخم وأعتى الأنظمة الاستخباراتية ترصد الرجل وإن كان ملتحماً في السرير بزوجته. لكنهم... لا يعلمون ما يدور حولهم. سوف يطوف التيه العربي القرن الأربعين في شرق أوسط جديد يرسم حدوده الحبل السرّي الرابط بين سماسرة الجهل وتجّار الحروب. بكى آدم على الجنّة أربعين صباحاً. بكى داود إثر خطيئته أربعين يوماً. أدنى المؤمنين شفاعة يشفع في أربعين من إخوانه. كمال العقل عند بلوغه الأربعين. تتراقص الأموات على شبق الأربعين ، وطقوس أخرى تجري على قدم وساق.

العجوز الذي يعيش الآن غمرة الانتكاسات، قد اجتازه منذ عقود وحين كان رئيسا لمخفر البسيتين. كان حينها ملقّباً بالوحش تُوكّل إليه المهام الصعاب وقد أثبت جدارته فيما أنجز من مهمات أخفق فيها آخرون. في بلوشستان قضى على بعض المارقين بين قتل وقبض. لكن ... لم يكن ذلك هو السبب الحقيقي، فأنا وإنْ كنت قد تجاوزت الأربعين إلا إنني لست أيوب أمتلك صبراً دون حدود، بل لاجئاً غريباً قد استنزفت الحرب طاقته حتى أنهكته فأصبح قليل الصبر. قنبلة موقوتة من المحتمل أنْ تنفجر في أي وقت. لكن... في البُعد تتقزّم الأحجام فتضيع في عنان السماء حيث تتراءى النجوم في أحجام متشابهة.

كانت أمُّ حامد في ضيق هي الأخرى تستاء من المشهد، لكنها تداري هذا الضيق حيث كانت تقلّل من ظهورها في ساحة البيت لاسيّما عند المغيب. وكانت تحاول إقناعي بأنْ أتجاهل تصرّفات مجنون كهذا العجوز إذ لاتستحق في رأيها تصرفاته ردّة فعل أبداً . سمعتها أكثر من مرّة تدعو الله أنْ يُلهمني صبراً، لكن أي صبر تطلبه؟ الصبر على الحرب؟ أم الصبر على الجوع والغربة الفاتكة؟ أم الصبر على حامد الذي غطَّ في دهاليز الغياب فلا خبر منه منذ شهور؟ مترع صدرها بالهموم. أيمكن أنْ يدعو الله من آمن به بغير هذا الدعاء لاسيّما إنْ كان منكوباً طحنته أنياب النوائب؟ للآن يرنُّ صدى دعائها في ممرّات أذني. دعاء لم يغب عنه حامد أبداً :

– *استر علينا ربي. ورجع لي وليدي.*

-١٩-

كان المارد الأخضر هادئا كعادته، يشوبه شيء من الحذر. كعينين متلصّصتين تمرّ من فوقه غيمتان سوداوان على إيقاع ثقيل، ينعكس صداه على مرآة الماء الهادئ. الشمس في عنان السماء تلوذ خلف هالتها، تراقب الأوضاع عن كثب. مرَّ آخر بلم محمَّل بأتلال البردي والچولان تمسّد أزهارُه الصفراء زرقةَ مياه الهور بعد ما يشقّها حيزومه المتقدّم. يدفع البلم إلى الأمام بلّام بمرديه الطويل يخزّه في قاع الهور في احتراف. يقاوم المردي قليلا وفي النهاية يؤدّي مهمته بعد تقوّس بسيط. البلّام يردّد موالا حزيناً يترجم ألماً تربّع على قلبه، يروّح به عن نفسه المتعبة. عند التقاء اليابسة بالبردي، هناك ممرٌّ مائي ضيّق صاف *مثل عين الديچ* يشقُّ القامات المصطفة للبردي إلى نصفين يميناً ويساراً. بلم خشبي صغير جثا صدره على الطين بينما مؤخّرته تلامس الماء. كان تحته مطلياً بالقار كما جانبيه، تبرز في وسطه مصطبة خشبية تقسّمه إلى نصفين متساويين، وتتصدّر أخرى مقدمته وقد أخفاه أحدهم تحت كمٍّ من القصب والبردي الجافين.

طلقات رصاص ماجنة تستبيح عذرية الصمت. سرب من البطِّ يفرُّ هارباً نحو الأعالي حتى تتقرّم أحجامه في كبد السماء سريعاً، فتتداخل حدَّ الانمحاء و سرب آخر من قبله قد طار في وجوم نحو ناحية أخرى. تكفُّ الضفادع عن النقيق فتقفز في الماء مرتبكة. وحدها الرؤوس على قامات البردي الطويل ما زالت ثابتة في مكانها، تتابع الموقف في وجل.

بأنفاس متسارعة جاء راكضاً من بعيد والبرنو في يُمناه. كان طويلا عريض المنكبين، أشعث الشعر وقد طوّق خصره حزام من الرصاص من الجلد البني. كان فارغاً إلا من بعض الرصاصات. بدت حبّات العرق تلمع على جبهته الواسعة. وقف للحظات استدار بها نحوهم فمسح جبهته بذيل كوفيّته التي كان قد لفَّها حول رقبته. بدا كصقر يُصوّب بصره نحو المكان ليقيّم الوضع حتى يستعد للانغضاض. حاجباه الكثيفان المقطبان ينذران بحدث جسيم.

أزيز وابل من الرصاص يخترق السكوت المستباح من جديد. يقترب الرصاص ... فيقترب. يتجمّد كلُّ شيء. يكفُّ الماء عن الجريان. تلوذ الأسماك بقاع الهور. يتجمَّد النسيم فيلوذ بين سيقان البردي ليراقب المشهد في ذعر من بعيد. بدا الهور كتلة واحدة تقف واجمة. بتلقيمة للبرنو يتأهّب للمواجهة. يستدير ليلوذ بأحضان الهور راكضاً. يفتح الهور ذراعيه:

– هلمَّ... إليَّ يا ولدي... إليَّ يا آخر أسطورة تمشي على قدمين. أنا من سيحميك من كيد الحاقدين... سبق وإنْ حميتك كما حميت محيى وآخرين.

يعرف مداخل الهور ومخارجه، كما يعرفه البردي والچولان . تعرفه الأسماك والطيور مثلما تعرف بعضها البعض. يقشع البردي عن البلم ثمَّ يدفعه نحو الماء. بدفعات يشحنها في جوف المردي. يشقُّ حيزوم بلمه ماء الهور، فيختفي بين تعرجات الممرِّ المائي وهو يتحسّس حزام الرصاص:

– لست مارقاً كما تروّجون. أنتم المارقون حين غزوتم أرضنا واستبحتم هويتنا. بشطبة قلم غيرتم التاريخ رأساً على عقب. جعلتم البطل خائناً والخائن بطلا. وقفنا بوجه الإنجليز في المحمّرة حين ولّى جيشكم هارباً وفي المنيور وقفنا بوجهه مرة أخرى حين لم تجرؤوا على مواجهته. على هامة التاريخ صلبتم الحقيقة ثمَّ رجمتموها بسهام الحقد.

حين وقفوا عند الممر، رشّوا من فوهة بنادقهم الهور بوابل من الرصاص العشوائي، اخترق سيقان البردي. تساقطت السيقان في أحضان بعضها البعض. غيمة من الدخان تصاعدت. رائحة البارود غطّت المكان. وجه الهور صار مشوّهاً. مجزرة حلّت بين القصب. هاماتها سقطت عند أرجلها. لو كان لها دماً أحمر لسال فاحمرّ الهور بأكمله. اختلطت الخُضرة بالدخان. بقى قائد الجندرمة عند حافّة اليابسة يمسك مكبّراً للصوت. ينصح المطارَد بصوت لا يخلو من الذُعر، يدعوه للاستسلام والكف عن المقاومة:

– سلّم نفسك وكفَّ عن العصيان.

بايماء منه توزّع الجنود على يمين الممرِّ ويساره، فدخلوه يتقدّمون على الجانبين في محاولة لتمشيط المكان. لامستْ بنادقهم قامات القصب:

– أنت خارج على القانون. قتلتَ بعض الجنود كما جرحت البعض منهم. سلِّم نفسك واحصل على عفو أو تخفيض للعقوبات.

يتقدّم الجنود في صمت. اِحديداب الظهور ، فوهات البنادق الفاغرة ، السبّابات التي تلامس الزناد والخوف الراجف كلّها كانت كفيلة بتجميد الزمن.

– ما زالت بوّابة العودة مفتوحة أمامك. كنْ شاطراً وسلّم نفسك حتى تشملك رأفة الحكومة وعطفها الأبوي.

ثارت رصاصة من بين القصب فطار مكبر الصوت في الهواء مثقوباً. رمى القائد بجسده المكتنز خلف تلّة ترابية. الجرذ الذي كان قد لاذ في جُحره تحت التلة، بدا واجماً. كان قد سمع كثيراً عن المارق هذا لكنه لم يكن يتوقّع أنْ يجده صلباً فيتقزّم أمام شجاعته يوماً ما. الجرذ من عمق الجُحر يراقب الموقف خائفاً. أطلّت برأسه فكرة شعر بالارتياح نحوها.

لا بأس به أنْ أجعل المارق يُلزم الهور حبيساً لفترة لا يخرج منه وقد استطيع تحقّق ذلك الآن. فالمارق سيشعر بالخطر خارج الهور لفترة لا بأس بها. بذلك أبعدت الخطر من ناحيته، وحافظت على سمعتي بين الجندرمه، حتى تسنح لي فرصة موائمة للقضاء عليه لاحقاً. فراح يُقنع نفسه بتلك الفكرة التي كان على أتمِّ الاستعداد لقبولها:

– من المحتمل أنْ يتواجد في الهور البعض من أنصاره، يختفون بين كثافة البردي. أظنه يريد استدراجنا بين القصب كي ينفّذ خطته. ربّما هذا فخ...

خيّم سكوت مرعب من جديد. استخدم فوهة اللعنات حين وجد فوهة البنادق غير نافعة، لكنها كانت تخرج من كاتم الصوت:

– اللعنة عليك. لست كما وصفوك. ح ح ح قير ج ج ج بان. س س س أقضي عليك... عاجلا أم آجلا. لا تعيش في هذه المياه الآسنة إلا الخنازير. لستم بشراً. عرب أجلاف.

هل ستدوم الجرأة التي قد تسرّبت إليه من زناد مسدّسه المشحون ومن كثرة الجنود حتى نهاية المطاف؟

قبل أنْ يصدر أوامره بالتراجع والعودة إلى المقر، وبعدما تحسّس حافّة قُبّعته بيده اليمنى، تراءت له حركة بين قصب البردي ظنَّ إن أحداً من جنوده قد عاد من بين القصب بعد ما دخله لمطاردة المارق. رغم ذلك تمالكه الخوف فتراجع إلى الخلف لكنه أحسَّ بشيء ما يلامس ظهره. اتسعت عيناه خوفاً فصارتا تتلافتان يميناً ويساراً. من خلفه جاءه صوت واثق قوي:

– إرم سلاحك.

– م م م م ن أنت (قالها يتصنّع القوّة)

– لن أكررها. هذه الأخيرة . إرم سلاحك

تسمّر في مكانه. رمى بيمناه المرتجفة المسدس جانباً. استدار كما طلب منه ذلك الصوت. كان ملثّما بكوفيّة تطلُّ من فتحتها عينان تقذفان شرراً. قمّة الخوف حين

عرف صاحب تلك العينين. لمْ يشفع له رمي السلاح ولا اضطرابه ولا رفع يديه للاستسلام. كان قد وعد المارق بالمساعدة حال تسليم نفسه، فظن إنَّه سيختار بين الاثنين إمّا الاستسلام وإمّا الهروب، لكن الظن هذا صار عكسياً فتلاشى حين لمح غضباً ملتهباً في عينيه الناضحتين بالحماس. في بوءبوء عينيه لمع خنجر صقيل فراح يرتفع. كالقنفذ تكوّر على نفسه تحت اللمعان. هوى الخنجر فندت منه صرخة مدوّية أقوى من كلِّ الرصاصات التي اخترقت صمت الهور وقصبه. حزَّ الخنجر أذنه اليسرى. اختلطت الصرخة بالدم فكان كلاهما أحمرين. الآن أخذ دعيّر بثأر الهور.

-٢٠-

حين استيقظَ من النوم صباحاً، مدَّ يمناه نحو الطاولة الخشبية الصغيرة فالتقط بتثاقل نظّارته السميكة على يمين المنبّه. بعد ما استقرّت النظّارة على عينيه الخافتتين، مرّر كفَّه الأيسر على صلعته يمسّد الشُعيرات التي تحفّها. قام ببطء تسارع إيقاعه عندما همَّ نحو عدّاد الماء عند مدخل البيت، يقوده عكّازه الخشبي وكأنه على موعد مسبق معه. فتح غطاءه ثمَّ أخرج من جيب قميصه ورقة كان قد سجَّل فيها الليلة البارحة أرقاماً. لمْ تمض ثوان حتى غزت البيت صيحاته الهستيرية. تكهرب الجو. هرعتُ من غرفتي، وجدته ماسكاً بيده ورقة يلوّح بها في الهواء وكأنه حكم مباراة أشهرَ بطاقة حمراء بوجه أحد اللاعبين والمصير هو الطرد المحتَّم:

- هُم؟ ... هُم طلبوا منك أمْ أنتِ بادرت به؟

- ماذا تقصد أبي؟

– أنتِ تعرفين ما الذي أقصده. قلتُ لك أكثر من مرّة ألا تزوّدي هؤلاء اللاجئين بالماء.

هممتُ أنْ أسأله عن سبب الفضاضة، فالأمر غريب للغاية. ما الذي يجعله فظّاً معهم لهذه الدرجة؟ كأنه يعرفهم منذ أمدٍ بعيد...لكني تراجعت... تكفيني مشاكلي.

– لم أفعل.

– تكذبين. العدّاد يقول أنكِ فعلت ذلك.

لم تشفع لي محاولات الإنكار، فالصمت كان الحلُّ الوحيد. كنتُ أتوقّع أنْ يكتشف الأمر يوماً ما. الغلاظة قد تجذّرت فيه فازدادت منذ ذلك الحادث، فقد حدّثنا عن اشتباكات خاضتها الجندرمة ضدَّ المتمردين في الجنوب. كان يقول لنا إن المتمردين أطلقوا قذيفة هاون نحو المخفر فأصابت شظية منها أذنه اليسرى فبترتها من جذورها. هكذا قال لنا. أتذكّر جيداً حين عاد .كان يُخفي عنا أذنه المبتورة، فهو للآن يتألّم حينما يتذكّر ذلك الحادث الأليم. طلب مني أنْ أقسم بروح أمي التي ماتت قبل عام لكنني أحجمت عن ذلك. مكث للحظات يحملق في عيني وكأنما يبحث فيهما عن دليل آخر يُثبت صدق مُدّعاه. هدأت ذبذبات التوتّر في عينيه لثوان. هدوء قبل العاصفة و تمهيداً لسؤال مشحون بالخباثة:

– أنتِ... أنتِ متأكدة؟

هززت رأسي مؤيّدة وأنا أزدرد ريق كان مرّاً كالعلقم من شدّة الخوف. أشاح بوجهه عني فولّاني ظهراً محدودباً وهو يهزُّ رأسه ويتمتم بغضب :

– الويل لكم ... الويل.

الفضول بداخلي مازال يبحث عن جواب لذلك السؤال الذي بقى يدور في رأسي:

ما جدوى هذا التشدّد والإصرار على مقاطعة هؤلاء النازحين؟ أي سوء بدر منهم حيث جعله يحذرنا من مجرد الارتباط بهم؟ هل هناك أمر ما يخفيه عنا؟ صرت أتشوّق لاكتشاف ذلك السر. أعرف إنَّه سيعصّب.

كانت توجيهاته الصارمة تلزمنا ألا نتعاطى معهم فحتى القاء التحية كان يوصينا بتجنبه. هم خونة قد خانوا الوطن حين تخلّوا عن مواجهة العدو فلا يستحقون العون والمساعدة. هكذا كان يقول. في البداية لم يكن في هذا التشدّد رغم إنَّه كان يكرههم لكن في الفترة الأخيرة ازداد كرهه لهم حين علم إنَّ هؤلاء الاجئين عرب من الجنوب. سمعته ذات يوم وهو يتحدّث مع أحدهم عبر التلفون فكان يخبره أنَّ هؤلاء ذبحوا الذبائح ترحيباً بالعدو المعتدي فهم خونة. قال لي ذات يوم إنَّهم يكذبون حين يدَّعون أنَّ لهم ابناً يتواجد ضمن صفوف الجيوش والمدافعين عن الوطن. إنْ كان الأمر صحيحاً كما يدّعون فلمَ لمْ نراه يأتي في إجازة مثلا؟

في البداية كنت أتقزّز من مجرد رؤيتهم. حينما أخرج من البيت أزدرد ريقي خوفاً من أنْ أصادف أحداً منهم في طريقي. لا أسمح لطفليَّ زهرا وكامران أنْ يخرجا للعب أمام باب البيت. رسم أبي في عقلي ذهنية قاتمة لهم تكاد تقترب من صورة اللصوص وقطّاع الطرق. كنتُ أظنهم وسخين عفنين لاسيّما بعد أنْ ازدادت شحّة المياه عندهم فكنتُ أتوقع أنْ تتصاعد منهم رائحة كريهة. لكنني عرفت فيما بعد إنهم يستحمُون أكثر منا وشعر حنان بنتهم الصغيرة مُمشّط أغلب الأحيان ورائحة أمهم زكية طيبة. رغم الهمِّ الجاثم على قلبها وغياب ابنها الجندي ورغم ما أشيع عني من أخبار كالجنون من قبل زوجي، إلا إنها كانت طيبة القلب، تتعامل معي برفق وحنان لمْ أر مثيلا له. ليت أبي كان يعاملني هكذا. قبل أسبوع حين مرضتُ أرسلت لي إبريقاً من الزعتر. ذات يوم وأنا على السطح أجمع الغسيل المنشور على الحبل، سمعت صوتاً خافتاً قادماً من تلك الخربة يرافقه نشيج متهدّج. رغم إني لم أفهم العربية إلا القليل لكنني شعرت إنَّها تبكي إبنها حامداً وتدعو ربها أنْ يعيده إليها سالماً بعد غياب طال أمده. لم يقتنع أبي بعقليته المريضة حين أخبرته عن قصّة ابنهم حامد، قائلا إنَّ غياب ابنهم في الجبهات مجرّد إدّعاء، وإن كان صحيحاً فربّما هو الآن يقاتل في صفوف العدو.

كانت تلك الخربة قد أخذت وجها آخر حين نزلوا بها. لا أنسى تلك اللحظة التي تهجّم عليهم أبي كالمجنون وذلك في اليوم الأول من نزولهم فيها:

– كيف تسكنون في هذه الخربة والعقارب قد عشعشت فيها؟ لمْ نسلم نحن من تلك العقارب فما بالكم أنتم؟ من الأفضل أنْ ترحلوا من هنا. هناك أماكن أفضل ... إرحلوا.

غضب ابنهم حمودي فأراد أنْ يرد عليه لكن أبيه منعه ثمَّ نصحه أنْ يراعي كبر السن، ثمَّ قال مخاطباً أبي:

– آغا ... لا بأس... سنعالج الأمر بطريقة ما. لابدَّ لنا أنْ نتحمَّل المشاكل والأخطار.

– إن كنتم شجعاناً كما تقول فلماذا هربتم من مدينتكم ولمْ تتحمَّلوا أخطار الحرب هناك؟

– ظروف... وسنعود إليها فور انتهاء الحرب. تيقّن إننا لن ننسى مدينتنا أبداً ولا رغبة لنا في المكوث هنا. لن نبقى لثانية واحدة في مدينة لاتقيم للغرباء وزناً. حبا الله مدينتي حيث كانت تُكرم الغرباء متى ما أتوها.

رفع سماعة التلفون ليتّصل بمصلحة المياه، يطلب فحص العدّاد لكنه أحجم عن ذلك، حيث خطرت بباله فكرة ما. فتح صنبور الماء عند مدخل البيت فأخذ يدقّق في العدّاد الراقد بالقرب منه. لاحراك لعقارب العدّاد. كان جُمود العدّاد وعطله يكفي ليزداد أبي إصراراً على موقفه أكثر من ذي قبل، يجزم إنَّ الماء يهرّب إلى اللاجئين العرب لكنه بقى مستغرباً، كيف ومتى حصل ذلك؟ هذا ما كان يتوق لمعرفته. قرّر أن يتحرَّى عن الأمر بنفسه.

راح يضرب منبت عكازه الخشبي في البلاطات، يعتصر أفكاره لتنجب له حلّا يخرجه من دوّامة هذه الأزمة. من أين يحصل هؤلاء على الماء؟ لا أرى توصيلة مياه لديهم ولاعين تنبع في خربتهم ولم أسمع إنهم يطلبون الماء من الجيران !!!!!

-٢١-

إشعاعات جنون أو هلوسة؟ لا أعرف. لكنني عرفت فيما بعد إنَّها تنبعث من ماضيه البعيد بين فترة وأخرى، لاسيّما إن انغمس في فيافي ذلك الماضي. يبدأ العرض المسرحي بمحاكاة ساخرة لقوّة العسكر وغطرسة الفاتحين وينتهي بمشهد تراجيدي يتصدّع له القلب. المقطع الساخر كان الأجمل في العرض ينسينا أوجاعنا ويخدّر موضع الهموم في داخلنا، لكن ذلك المقطع التراجيدي الذي يمحي أثر المقطع الساخر كان محزناً يرسل العجوز من خلاله بعجز طلبات النجدة، تلك النهاية المحزنة التي كان لها من التأثير حيث تجفّف البسمة على الشفاه. كان لها دور في تزويد أبي بجرعات من الصبر وتدارك الموقف فلولاها لانفجر غضباً فتسلّق الجدار القائم فيما بيننا وأنزل ذلك العجوز فدفنه في الخزّان الإسمنتي بعد ما أوسعه ضرباً مبرحاً.

بدأ العرض مساءً وحين رفع الليل أستاره. ظهر البطل فوق سطح البيت، فبدا كلُّ شيء جاهزاً. الديكور كان وجه الليل الغامق، تناثرت على مساماته بعض النجوم هنا وهناك. لكنها لم تكن مضيئة كما كانت في مدينة الطين. أحاول مراراً أنْ أتعرّف على تلك النجوم كما كنت أعرفها هناك، لكنني أفشل. النجوم عندنا أقرب إلى الوادي، أقرب إلى السهول، تكاد أنْ تقبّل الأرض في وداد. لاتختفي أبداً. أظن أنَّ هناك تجانساً بين الطين والسماء. كانت الشمس عندنا هناك تنام في أحضان كارون عند المغيب وتغسل وجهها في ماء الكرخة كلَّ صباح.

لكلِّ نجمة كنا قد اخترنا اسماً، فذلك يمنحنا إحساساً بالدفء لاسيّما حين ننظر إليها، ندقّق فيها وكأنما الإحساس الجميل الدافئ وحده يكفي لبلوغ السعادة. السعادة أنْ تشعر بأنك قريب من النجوم، قريب من القمر، قريب من السماء الزرقاء الحالمة بالضياء. القمر المطلُّ من فوقنا بدا تلك الليلة شاحباً كعادته. أيعلم إنَّ العرض ستكون نهايته تراجيدية؟ رغم ذلك قد تكفّل بإضاءة خفيفة.

كان من الواضح أنَّه يعتني ببذلته العسكرية الزيتونية. مازال هناك أثر لخطوط الحواف الحادة على الكمين ما يدلُّ على مرور المكواة بلسانها الملتهب المصقول. والنجمتان الذهبيتان ما زالتا تحتفظان ببريق رغم انتهاء صلاحياتهما.

رقدت فوق رأسه قبعة من لون البذلة وقد طوّقها حزام أسود يميل قليلا نحو الشحوب فبدا رمادياً لكنه مازال متناسقاً في إناقة مع الزيتوني المائل نحو الأخضر. على جبهتها أسد بهلوي الهوى مازال يقف حارساً رغم سقوط أسياده منذ أربع سنوات وقد استلَّ سيفاً مقوّساً ظهر النصف الأعلى للشمس من خلفه. أخطأ نيوتون فما اكتشفه ليس قانون الجاذبية بل قانون السقوط. السقوط أعتى قانون الكون. الكلُّ يسقط. كلّما كنت مرتفعاً، كلّما كان سقوطك مدوياً. كانت الشمس قد تكاثرت الخيوط من حولها حتى بدا وهجها في ازدياد فغطّت التاج الملكي في بؤرة من نور. يذكّرني ذلك الوهج المتصاعد بشمس مدينتي الطينية، يذكّرني بالعرق المتصبّب من جبهة عمّي ثامر حين يقذف

بالسلّية المثقلة بقطع الرصاص في بساط دائري في نهر الكرخة وحين يسحبها تمشّط في طريقها كلَّ غُثاء، تَلبِطُ أسماك البُني والشُبوط في محاولة منها للخلاص. والعرق المتصبّب من جبهتي حين أساعده في عزل السمك من السلّية وتلك الزُوريات الصغار التي تتوهّج أصدافها الفضية تحت نيّر الشمس السخية.

يبدو أننا وحدنا المتفرّجون، فالمسرحية تُعرض خصّيصاً لنا. لم يكن العرض وحده جديداً لنا ولا خشبة المسرح وحدها، بل كانت المدينة كلُّها جديدة. الناس والحياة والعادات والتقاليد واللغة والنظرات والتصرّفات والتعاملات كلُّها جديدة. هنا تعلمنا إنَّ الجديد قد يكون غير مرغوب به أحياناً وإنَّ القديم يحمل عبق الأصالة غالباً وإنَّه أكثر بهاءاً وجمالاً.

كانت ليلة صعبة للغاية. لأكثر من مرّة رأت أمي كوابيس مخيفة تهبُّ على إثرها تلهث مذعورة خائفة والعرق يتصبّب من جبينها. في كابوس رأت حامد ممزّق الأشلاء، ينزف دماً أسوداً، يمدُّ يده نحوها فيصرخ لكن صراخه غير مسموع. استيقظنا على إثر صياحها مذعورين. هبَّ أبي قبلنا يسمي بسم الله يصبّر عليها. في المرّة الثانية رأت جماعة يمثّلون بحامد وهو ممدَّد مكبّل الرجلين واليدين . تتصاعد ضحكاتهم وكأنهم يحتفلون بنصر ما، فتنادي حامد في ألم:

- *يماااااا وليدي حاااامد يمااااا*

بدأ العرض. تحسّس النجمتين في جانبي البدلة، ثمَّ حافّة قبعته حتى استقرّت أصابعه على الأسد السيّاف الأكثر نتوءاً، فالشمس المتوهّجة، فالتاج الملكي. البسمة الزائفة ترجمت شعوراً غريباً سرى بداخله من هيبة التاج. يبدو أنه يفعل ذلك عن قصد. فجأة اتخذ ذلك الوجه الهزيل المدبوغ حالة الحدّة و شيئاً من الصرامة فانتفخ كالدجاجة الكركة. ارتفعت كفّه اليمنى في انبساطة حتى صارت بمحاذاة الحافّة الأمامية للقبعة فراح يتمتم إيقاع السلام الملكي الذي سقط ضمن مسلسل السقوط:

– شاهنشه ما زنده بادا ..... پايد كشور به فَرَش جاودان[١]

بعد النشيد وبعدما اتخذ موقفاً قتالياً خلف الخزّان، صنع منظاراً باصبعي الإبهام والسبّابة من كلتا يديه، فراح يحدّق من خلفه في مسح شبه دائري للمكان.

– دعيّر. سلّم نفسك وكفَّ عن ألاعيبك. أنت خارج عن القانون. قتلت بعض الجنود كما جرحت البعض منهم. لكن باب العودة لا يزال مفتوحاً أمامك. سلّم نفسك واحصل على تخفيف للعقوبات....دنك...دنك...دنك...

ثمَّ تصنّع يأمر جنوده بتطويق المكان والقضاء على المطلوب:

– أمهلك بضعة ثوان حتى تخرج .... جيش جرّار معي ..... لاتقاوم.

لكن... فجأة انكمش كالقنفذ حول نفسه، واضعاً رأسه بين كفيه ضاغطاً على أذنيه. لاحراك سوى للبؤبؤين يميناً ويساراً وسط عينين حمراوين في ذعور. بصوت خافت أجش تسانده حركات يدين تتقافزان كما تتقافز يدا غريق يحاول النجاة دونما جدوى، يردّد صراخاً يفتّت القلب ثمَّ يتستّر خلف الخزّان القاص بالمياه:

– آ آ آ آ آ آ آ آه

سمعتْ سيمين صرخات أبيها فخرجت مهرولة تستفسر عمّا يحصل. لطمتْ خدّها حين أعلمناها بالأمر، فطلبت مني أنْ أساعدها في إنزال العجوز. كان دعيّر اسم يتردّد على لسانه.

ما الذي أراده العجوز بذلك العرض؟ هل أراد أنْ يغطّي إخفاقه في القبض على دعيّر بعد ما ظنَّ إننا ننتمي إلى تلك الشلّة التي ينتمي إليها دعيّر فينتقم؟ المهم إنَّ ما يُسمّى بدعيّر هو السبب الحقيقي للمشاكل التي ألمت بنا، فلولاه لربّما حصلنا على توصيلة مياه. لم أكن أعلم حتى ذلك الحين إنَّ هناك رجل من المارقين يُسمّى دعيّر وقد تشابك مع قوات الأمن البهلوي فأذاقها المرّ. كان أبي يحدّثني عن حتّه، عن صولاته وعن

---

١ – دام مليكنا العظيم ..... دام الوطن تحت ظلّه خالداً

القصص التي أحيكت حوله منها ما له ومنها ما عليه، أمّا الآخرون الذين يتحدّث عنهم ضابط الجندرمة المتقاعد غفوري فلا.

استمرت أعراض تلك الحالة لبضعة أيام متتاليات. أحيل إلى التقاعد بعد ذلك الحادث بسنتين بعد ما تمَّ نقله من البسيتين إلى منطقة خارج الإقليم. كان يعمل ضمن قوات الجندرمة في المحمّرة كما كان في بلوشستان. تمَّ نقله إلى البسيتين لحسن أداءه وتفوّقه. آلمه ذلك الحادث نفسياً أكثر مما آلمه النقل. العجوز لم يبد أية مقاومة حين أنزلته بمساعدة سيمين. لقد نفذت قوّته خلال العرض. حين طوّقته بذراعي لمحت للحظة ماتبقى من تلك الأذن المبتورة التي لم تُفلح شعرات رأسه الأصلع في إخفاءها. رأيت وجه دعيّر ورأيت الخنجر وبريقه الفتّاك ورأيت ما لم ينقله لي التاريخ. ترك لرجليه اختيار نزول السلالم بينما استمرَّ حفر تفاصيل الحادث من داخله، ينعي أذنه بلسان حزين لا يخلو من السلاطة:

-أذني... اقتطع أذني... ليتني لم ألاحقه... من يظن إنني أعاقَب هكذا على يد ذلك العربي الجلف؟ هؤلاء هم من قومه وذويه. خونة قدّموا الذبائح للعدو. لقد ذهبت سمعتي أدراج الرياح. ليتني لم ألاحقه ... ليتني لم ألاحقه.

رغم انتهاء العرض واختفاء البطل بقينا في صدمة وذهول. يدخل الواحد منا في تساؤلات مع نفسه: أجنون هذا أم تمثيل أم ماذا؟ تقلّصت عند أبي مساحات الغضب فهفت لهيبه كما تقلّصت عندي بواعث السخرية، فجفّت البسمة الشامتة على فمي لتحلَّ محلها أخرى باهتة تذوب في دوّامة إيقاع حزين أظنني أستطيع أنْ أسمّيه تعاطفاً ولو أنَّ العجوز في غير حالته هذه لا يستحق العطف أبداً.

-٢٢-

من مثلي كان صادقاً في خدمة الوطن؟ في المحمّرة والشلامجة، في الحويزة والبسيتين ومرتفعات مشداخ طاردتهم فسلبت النوم من أجفانهم. نشرت الأمن هناك. أخذ الشاه قراراً صائباً حين أنشأ يَزدِ نُو[١] فالعرب تنقصهم الثقافة، يحتاجون إلى التقويم والإصلاح. طبعهم الذي يميل إلى الفوضى والبداوة ونبذ القانون، يشجّعهم على السلب والنهب. جلب الشاه من يزد أناساً فأسكنهم تلك المستوطنة. منحهم الأراضي الزراعية الخصبة والمياه الوفيرة. زرعهم في وسط العرب ليكونوا مصدر خير وتحسين النسل، يعلّمونهم الزراعة والثقافة. ثار المدعو دعيّر محتجّاً على القرار، فشكّل خلية عصيان على القانون. هاجم المخافر والمقار الحكومية فقتل عدداً من عناصر الجندرمة وجرح البعض منها. نهب وسلب وعاث فساداً . كان كالثعلب المراوغ، من الصعب النيل منه. سريع التنقّل هو ورفاقه. نطارده في البسيتين ففجأة يظهر في الحويزة، ثمَّ نلاحقه هناك ليخرج لنا من

١ – قرية استيطانية بالقرب من الحويزة، شيّدها النظام البهلوي، وقد جلب سكّانها من مدينة يزد، فمنحهم الأراضي الزراعية الخصبة والمياه الوافرة بغية تغيير ديموغرافية المنطقة.

الشلامجة. لولا تعاون بعض العرب ومنهم بعض الشيوخ الذين وجدوا الفلاح عند الحكومة، لما تمكّنا منه. بلغ السيل الزُبى حتى جاء أمر من القيادة ينصُّ بأنَّ دعيّر بات مصدر قلق للحكومة البهلوية فيجب القضاء عليه،لاسيّما وبعد مهاجمته مقر الجندرمة في الحويزة وقتله جندياً ونائب عريف. وصلت العناصر الإضافية بعد أيام قليلة بناءاً على الطلب الذي أرسلته للمركز، فالتحق بنا عشرون جندياً تمَّ إرسالهم من الأهواز.

حسب بلاغ زوّدَنا به أحد عيوننا حاصرناه في بيت أحد من رفاقه كان يسكن الحويزة. قبل تطويق المكان بقليل تمكَّن من الهروب عبر سطوح المنازل المجاورة، ففرَّ نحو الهور الذي كان ملجأه الآمن. كان العثور عليه أمراً شبه مستحيل فما بالك القبض عليه والنيل منه. ذات يوم حاصرناه مختفياً في الهور وفي النهاية أطلقنا عليه النار بكثافة كان كفيلا بأن يقتل كلَّ كائن حيّ. لكنه خرج من خلفي كالعفريت، فحزَّ خنجره أذني وقبل أنْ يلوذ بالفرار قتل ثلاثة من العناصر التي كانت قد التحقت بنا. بعد هذا الإخفاق تمَّت محاكمتي، فقرّرت المحكمة العسكرية إحالتي إلى التقاعد، لكن هناك من ساعدني من الضباط الكبار في كسر هذا القرار، حيث تعهّدتُ بتصحيح ما حصل مني من تهاون في الأمر أدّى إلى هروب المطلوب واستمراره في غيّه، فوعدت السلطات بأنني سوف أقبض عليه وأسلمه حياً أو ميتاً في وقت أقصاه شهرين. تنقّلت بين القرى والأحياء لمدّة شهر متنكراً بالزي الأهوازي، أشتمُّ أخباره هنا وهناك. علمت إنَّه سيحضر في بيت صهره يعزّيه في وفاة والده. نصبتُ له كميناً بعشرين من عناصر الجندرمة وبالتنسيق مع بعض معارفه. لكن الثعلب المراوغ كان قد شمَّ رائحة المؤامرة، فتموضع في المضيف القصبي الكبير في ساحة البيت الواسع الأطراف. طلبتُ منه تسليم نفسه، لكن الردُّ كان رصاصة أصابت جندياً. ركزّت على تطويق المضيف وحده فأجمعت العناصر التي كانت تتموضع خارج البيت وداخله. أطلقنا النار على المضيف بكثافة. لم نترك شبراً إلا وصوبنا نحوه. أخرجنا جثته قبل أنْ نشعل النار بالمضيف. اختلفت العرب المتفرَّجون المتابعون للموقف من فوق الأسطح والحيطان في عدِّ الرصاصات في جسده. لكني

وجدتها خمساً وعشرين رصاصة. يتظاهرون بأنهم معنا، لكن من الممكن أنْ يتحوّل الواحد منهم إلى دعيّر بل أخطر منه بين لحظة وأخرى. لا ثقة بهم. حين قامت الحرب مالوا نحو العدو فكانوا الطابور الخامس. خدموا في صفوفه وذبحوا له الذبائح . من سكن جنبي في هذه الخربة هم من هؤلاء. أكرههم فلا أحبُّ سماع أصواتهم أو إلقاء التحية عليهم أو تصبيحهم. منذ أنْ سكنوا هنا لم أنم الليل إلا قليلا مخافة من أنْ يقتحموا بيتي فيسرقوه. ابنهم الذي يدّعون إنَّه يخدم العسكرية هو الآن في صفوف العدو يقاتل معهم ضد بلده. ليس ابني السجين المنتمي إلى مجاهدي خلق يشكّل خطراً على البلاد وعدواً له، إنّما هؤلاء هم الأخطر من أي شخص آخر. أقفلُ فتحة الخزّان بالقفل وأطمئن من إقفال الأبواب كلَّ ليلة قبل النوم، من المحتمل أنْ يسرقوا الماء أو يسمّموه. ليتني كنت قادراً على طردهم من هذه الخربة. فرحتُ حين سمعتُ أن بعض الجيران ومن على أسطح بيوتهم يقذفون بالنفايات نحوهم ، لكن لا أعلم لماذا كفّوا بعد أيام عن الاستمرار في التضييق على هؤلاء؟

-٢٣-

في عزلة شبه تامّة، يعيش وحيداً بعد ما ماتت زوجته. خلقه النتن وطبعه الغليظ كانا من أسباب عزلته، لا يستقبل أحداً في بيته ولا يستقبله أحد. حتى التحية فكانت مقطوعة بينه وجيرانه. أضف عاهة الأذن المبتورة التي جعلت مظهره مشوّهاً. لعلَّ سجن ابنه الوحيد عليرضا كان السبب الآخر. ذات يوم لمحتُ صورة له في غرفة الجلوس حين طلبت مني سيمين مساعدتها في تنظيم الهوائي. كان عضواً فعّالا في منظّمة مجاهدي خلق المعارضة للثورة والتي خاضت مواجهات دامية مع النظام البهلوي آنذاك ثمَّ مع النظام الجمهوري بعد نجاح الثورة. سيمين ابنته الوحيدة المتزوجة من موظّف بنك، طردها زوجها قبل عام فسكنت عند أبيها وعلى مضض منها. إدّعى زوجها عند طلبه الطلاق بأنَّها مُصابة بجنون دوروي ينتابها بين حين وحين، ما يجعلها تتحوَّل إلى مسخ لا يمكن السيطرة عليه، حيث باتت تشكّل خطراً على حياته. وكان يفتري عليها بأنَّها ولأكثر من

مرّة حاولت قتله بالسكين ليلا وهو راقد في النوم، حيث اضطرَّ إلى إعادتها إلى بيت أبيها. لا أعلم هلْ زوجها كان على حق أم ما يتحدّث عنه كان مجرد إدّعاء له فيه غايات أخرى. كانت سيمين غريبة الأطوار بعض الشيء، لاحظنا ذلك منذ الأيام الأولى لنزولنا البيت الخرب، فتارة نجدها طبيعية بل حنونة طيّبة تتصرّف بمنتهى الطيب واللطافة وتارة نراها فظّة تُسيء التصرف معنا، حيث كانت في البدايات تشارك أحياناً الجيران في تصرفها العدائي ضدنا، فتقذف بالنفايات من فوق السطح على بيتنا الخرب. وتارة تعوم في كئابة تعزلها عمّا حولها، لكننا لم نلاحظ فيها شيئاً من الجنون أو التصرّف العدائي الناتج عن الجنون كما يدّعي زوجها والبيوت أقفال مفاتيحها حكر على أهلها مؤصدة بوجه الغرباء.

كانت أمي تميل إليها رغم حاجز اللغة بينهما. لعلّها ترى في سيمين لاجئة هي الأخرى. مطرودة عند أب قاس لا يرغب بوجودها كثيراً. سمعتها ذات يوم وهي تحدّث أمي عمّا عانته عند زوجها طيلة تلك السنوات. وإنَّها ضبطته أكثر من مرَّة يغازل عشيقته عبر الهاتف وإنَّه بخيل لا ينفق على أهل بيته، مدمن على الغمار، يبذر المال في غير موضعه ويضربها حين يسكر أو يخسر في الغمار. النفقة التي يدفعها زوجها حسب أمر المحكمة لم تكف لتأمين ما تحتاج هي وطفلاها فكانت في ضيق مالي. عندما يأخذ العجوز قيلولته، كانت تسمح لنا بإيصال طرف خرطوم المياه بالصُنبور عندهم والطرف الآخر في البرميل المعدني الذي استخدمناه كخزّان للمياه. كان ذلك بالتنسيق بينها وأمي. في السابق كان أبي بين ليلة وأخرى يملأ البرميل من حنفية المسجد الذي يقع عند بوّابة الزقاق مستخدماً علبة معدنية كبيرة يفرغها عدّة مرّات في جوف البرميل، لكنه ترك الأمر بعد ما شرعنا باستخدام الخرطوم لملأ الخزان. كنا قد أخفينا حقيقة الأمر عنه، فكان يظن أنَّ الأمر يتمُّ بعلم العجوز النكر صاحب البيت. في يوم غير محدَّد من كلِّ أسبوع كانت تتمُّ "الجريمة" وفي أقلَّ وقت ممكن. حين ينام، تقف سيمين عند باب غرفته وأنا أقوم بتوصيل الخرطوم بالصُنبور. العجوز قد يستيقظ من نومته في أية لحظة. تراقبُ

الوضع عن كثب. كان البرميل الذي زوّدنا به أحد الجيران كأمانة ثبتنا صُنبوراً في أسفله. أقفُ متأهّباً أسحب الخرطوم فوراً من الصُنبور في حال أتتني إشارة منها كما اتفقنا. في النهاية تدفع أمي لسيمين مبلغاً من المال تسدُّ به بعض احتياجاتها. شعر أبي ببعض الارتياح، فقد تخلّص من عبء جلب الماء من حنفية المسجد. بالرغم من استغرابه، إلا إنَّه شكر العجوز ذات يوم حين وجده عند الباب بالصدفة، لكنه استغرب أيضاً لعدم رد العجوز التحية. أقنع نفسه قائلا:

– الشايب چانت عنده ظروف وتغيّرت. سبحان مغيّر الأحوال !!! كلشي غريب بهذه الديره !!! كلها مطنكرا !!!

رغم تعاطف أمي معها إلا إنها كانت تتحفّظ من ناحيتها بعض الشيء فتتجنّب أحياناً الجلوس معها لفترة طويلة خيفة من أنْ تعتريها حالة الجنون المزعومة فجأة.

– دخيل علي.

تميمة تعالج بها خوفها الذي يعتريها أحياناً. أضف على ذلك أنَّ أمي لاتجيد الفارسية اللهم إلا بعض الكلمات كما أنَّ سيمين لاتعرف من العربية إلا البسيط فكان إطالة الحوار والمجالسة أمراً صعبا إلا إذا طلبت مني إحداهما التدخّل لأقوم بمهمة الترجمة، كما حدث فعلا ... ثمَّ بدأ الطلب يتزايد بالفعل لاسيّما من ناحية سيمين.

-٢٤-

صارت تكثر الوقوف خلف فتحة الباب، تراقب منعطف الزقاق بعينين تنضح قلقاً. تفعل هذا من الصباح حتى المساء من كلِّ يوم. لكن حامد لم يأت. خاتمها الذهبي الوحيد وحجل من الفضة كان نذرها لعودته. كان كلُّ ما تبقَّى لها من حُلي. تبكي في الصلاة حين تناجى ربَّها في خلوتها. لم تطلب صحة ولا مالا و لا عملا لأبي ولا حتى خمود الحرب... كانت تطلب عودة حامد فقط. خرجت ذات مرّة إلى الشارع العام كالمجنونة تستوقف كلَّ من كان يرتدي زياً عسكرياً تسأله عن حامد:

– *يما فدوة الطولك ... ماشفت حامد؟ من زمان ماني شايفته... يما وليدي.*

ازدادت حالتها النفسية سوءاً، فدخلت في صمت شبه كامل، لاتتكلّم إلا بضعة عبارات مقتضبة حينما نوجّه إليها سؤالا ما أو نصرُّ عليها المشاركة في حديث أو إبداء رأي في أمر ما. تناجي نفسها عبر مفردات لانفهمها أحياناً. تجلس لساعات في شرود تحملق في

أفق مجهول وكأنَّها ترى ما لاتراه. قلَّ طعامها فذبلت ونحلت بشكل ملحوظ. قلقنا عليها كثيراً. تطوّر الأمر مع مرور الأيام، حيث باتت ترى كوابيس مخيفة تفزُّ بسببها خائفة مذعورة وهي تصرخ:

– *يما حامد ... يما وليدي ... تعال يما ... يما!!!!!!!!*

على إثره تُبسمل وتصلّي على النبي وآل بيته:

– *اللهم صلي على محمد وآلي محمد*

حينها يهبُّ أبي من نومته في ذعر هو الآخر كما تفزُّ حنان وهي ترتعد خوفاً:

– *سمّي بسم الله ...سمّي بسم الله... راح يرجع حامد...راح يرجع سالم وغانم...*

لم تفلح محاولات سيمين التي أصبحت نديمتها في التخفيف عن أزمتها النفسية، فالمرأة بذلت جهدا كبيراً لإخراجها من تلك الحالة، رغم أنَّها تعاني من أزمة قد تشبه أزمة أمي مع بعض الفوارق . انطلق نحوي سؤال كالسهم الصافر لا أعرف من أطلقه:

– هل يعود أخوك حامد كما يقول أبوك؟ هل هو مقتنع بما يقوله لأمك؟ أم إنَّ الأمر مجرد مماشاة وتهدئة؟ هل خلف هذه الغيبة الطويلة في ظروف الحرب ولغة الرصاص والموت هناك رجعة؟ أم إنَّ *من طوّل الغيبات جاب الغنايم*؟

لكن هاتفاً سماوياً ردَّ من داخلي:

– إن كانت عودته مستحيلة فلماذا هناك أمل قوي في قلب أمي يجعلها تنتظر عودته؟

أدرك أبي إنَّ أمي تحتاج لمن يرعاها، فأجلَّ طلعاته الباحثة عن العمل إلى وقت آخر، لا يخرج من البيت إلا للضرورة.

في تلك الصباحية التي كان أبي حاضراً في البيت، طرق بابنا رجلان وإمرأة قالوا إنَّهم من قبل مؤسسة الشهيد. يريدون التحدَّث حول قضية حامد. إصفرَّ وجه أبي فخرّت قواه، فكاد أنْ ينهار أرضاً. لكنهم شجّعوه على أنْ يكون قوياً. طلب منهم التحدّث عند الباب وبصوت منخفض، عندما عرف إنَّهم من تلك المؤسسة. كانت معهم حزمة من الأوراق. طلبوا معلومات من أبي وتوقيعات على بعض الأوراق. أخبروه بأنَّ حامداً

سُجل في قائمة المفقودين. ثمَّ تحدّثوا عن سعيهم الدؤوب للعثور على المفقودين من الجنود وإنَّهم في تنسيق مستمر مع الصليب الأحمر والهلال الأحمر الدوليين و اللجان الدولية الأخرى. سيكون كلُّ شيء على مايرام. في النهاية سلّموا أبي كُتيباً كانت كلُّ ورقة منه مخصّصة لاستلام مبلغ شهري من المال. جعلته الصدمة ساكناً لا يعرف ماذا يفعل. هل يفرح لهذا الخبر الذي أبعد إحتمال الموت من حامد مؤقتاً؟ أم يحزن لأنه غائب مجهول المصير؟

كان عليه أن يكذب مرة أخرى. الكذب مُحبّب أحياناً، لكنه صار واجباً الآن. غسل وجهه بماء البرميل فرتّب مظهره. دخل على أمي يتصنّع البهجة، يبشّرها بخبر طازج مفرح. قال إنَّ الحكومة أخبرته بأنَّ حامد في خير وأمان وإنَّه سيحصل على إجازة قريباً ليزورنا بعد ما سمحت له الظروف. تحدَّث أبي مطولا وهي في صمت، تبحث في عينيه عن شئ ما. لا أظنها صدَّقت كلامه، رغم إنَّها تصنّعت القناعة. فهي تعرفه أكثر من نفسها. متى يكون صادقا ومتى كاذبا. عيشة عمر. بمجرد أنْ تنظر في عينيه نظرة خاطفة، ترصد وجه الحقيقة تماماً. الجد والمزح، الصدق والكذب في العينين. لا تكذبان كما يكذب اللسان. هل اتخذت أمي أسلوب خداع النفس للخروج من الواقع المرير؟ أتستطيع أنْ تخدع نفسها كما نخدع أنفسنا أحياناً؟ جميل أنْ تخدع نفسك أحياناً، لكن هل يمكنك ممارسة الخداع دائماً؟!!!

ازدادت مراودات سيمين إلى بيتنا بعد ما علمت بحالة أمي. صارت تأتيها يومياً تدردش معها وتسليها كأنما أمي تجيد الفارسية وتفهمها. لا أعرف من تهدّيء من؟ من جديد يطل برأسه سؤال من تلك الأسئلة التافهة: أي الأمرين أصعب؟ فقد الولد أم فقد الزوج؟

لم نكن نستخدم المياه التي كانت تزوّدنا بها سيمين – في الأسبوع مرة واحدة على أكثر تقدير – إلا للشرب وغسل أوعية الطبخ التي كانت بسيطة قليلة العدد وأمور أخرى بسيطة وأمّا الاستحمام وغسل الملابس فكنا نقوم به في الحمامات العامّة التي كانت

منتشرة في أحياء المدينة هنا وهناك. كانت أمي وقبل أنْ تسوء حالتها النفسية تجلب معها قسماً من الملابس، فتغسلها هناك على علم من مديرة الحمّام وذلك إزاء مبلغ متفق عليه. كما كنت أفعل أنا فأغسل ملابسي وملابس أبي في "النمرة" خلسة فأخفيها في حقيبة صغيرة دون أنْ أدفع مبلغاً إضافياً، رغم أن أبي كان يؤكّد على دفع ما يطلبه صاحب الحمّام. عرف أبي الحقيقة فيما بعد فلوى أذني:

– *ولك ملعون ...ليش ما تيوز من سوالفك؟ حرام هيچي بويه.*

في الأيام الأخيرة إزدادت رغبة سيمين في تعلّم المزيد من المفردات اللهجة الأهوازية خاصة تلك التي كانت تسمعها من أمي. كنت راغباً في القيام بذلك فوراً لكن أمي قليلا ما تطلب مني أمراً مشابها، حيث أصبحت قليلة الكلام في ظل الظروف الراهنة. وهل الصدمة التي تعيشها في غياب حامد ومصيره المجهول حتى الآن تسمح بفتح شهيتها لهكذا أمر؟

نادتني سيمين ذات يوم فطلبت مني أنْ أعتلي السطح فأدير الهوائي حتى يستقرَّ على محطّة تلفزيونية صافية البث. بعد ما قمت بما طلبت، دعتني إلى داخل البيت وكان العجوز نائماً. كانت سافرة الشعر ترتدي بنطلوناً وقميصاً أبيضاً قد طوت كُميه حتى المرفقين. ضيفتني بقدح من عصير الليمون فشكرتها في استحياء وامتنان. لا أعلم ما الذي دفعها لتحدّثني عن زوجها والمشاكل التي حصلت بينهما وعن الكثير من الأشياء التي لم أكن أعلم بها سابقاً؟ هل وجدتني موضعاً للثقة ؟ أم العكس وجدتني طفلا بريئاً سيحتفظ بأسرارها في قلبه؟ أم إنَّها أرادت بذلك طلب المساعدة في حلحلة بعض الأمور العالقة بينها وبين زوجها؟ وهل أنا كفو لهذه المهمّة؟ ألا تعلم بأنني في سن مراهقة مرشح لأكون مسبباً للكثير من المشاكل؟كما إنني قد أطمع بها في هذه الخلوة؟ من المؤكّد إنَّها لا تعلم ملاحقتي بالأمس لتلك الطالبة الجميلة التي اقتلعت قلبي فاختطفته وكنت اشتهي أنْ ألتهمها كما يلتهم الجائع المشمشة الناضجة؟ ألا تخشى مني وهي تظهر أمامي بهذا المظهر ودون ما يسترها من حجاب؟ أم إن الستر ستر الروح قبل أن يكون ستر الجسد؟

كما خمّنت مسبقاً، فسيمين كانت ستطلب مني طلباً وهي تنظر إلى بعينين بنيتين لأول مرة أحدق فيهما فأجدهما جميلتين:

– أريد أنْ أطلب منك خدمة.

– تفضلي

– أنْ تراقب بيتنا لبضعة أيام.

– لم؟ وكيف أراقبه وأنا لا أعلم أين يقع؟

– سأخبرك فيما بعد.

بقيت متردداً في صمت. ماذا أقول؟

– كيف أراقبه؟

– الأمر بسيط. تقف على مقربة من البيت فتراقب الداخل والخارج منه. وسيبقى الأمر سراً بيننا وسأكافئك طبعاً.

رغم إنني حاولت أنْ أتحاشى العبارة الأخيرة، إلا إنَّها كانت أكثر وقعاً على مسمعي. أحسست بأنَّها لوت عنق مقاومتي التي أصبحت تتراجع أمام الفتيات والجنس اللطيف مؤخّراً وإن لم تكن سيمين فتاة في عمري.

– سأفعل

في اليوم الثاني مساء راقبت الداخل والخارج من بيتها الذي دلّتني عليه. في ساعة متأخرة من الليل ركنت عند الباب سيارة رينو١٩٧٩فترجّل منها رجل يحمل معه كرتونا ففتح الباب بمفتاح كان معه ثمَّ جاء ثلاثة رجال نقروا الباب ثلاث نقرات مشفّرة، فدخلوا بعد ما فُتح لهم وهم يتلافتون يميناً ويساراً كاللصوص. بعد ساعة جاء رجلان ... وفي النهاية نزلت من سيارة بيكان إمرأتان شابتان مستورتان بالحجاب الكامل. لكنني لم أخبرها عما رأيت.

من هؤلاء الذين توافدوا على البيت؟ هل هم من أقاربها أو أقاربه؟ في الليلة الثانية طلبتُ من علي أنْ يرافقني دون أنْ أخبره بالأمر رغم إصراره على ذلك. طلبت منه أنْ يتسلّق

سور البيت فيطّلع عما يجري بداخله. كانت النتيجة كما تظن سيمين، جلسات سمر وغمار و لهو و...

هل أخبرها بما يحدث هناك؟ أم من الأفضل أنْ أكذب فأنقل لها خلاف ما شاهدت؟ ألا يكون الأمر صادماً لهاً فيضرها؟ في النهاية قرّرت أنْ أخبرها بما شاهدت بالضبط لكني لم أجزم على ذلك بعد.

بعد أيام وحين خرجت من البيت وجدتها تقف عند عتبة الباب وقد لفّت نفسها بالجادر . ألقت التحية حين كنت أهمُّ بالخروج. فسألتني في قلق تحاول إخفاءه:

– هل هناك من أخبار؟

مكثت لثوان أبحث عن مهرب ...لكن دون جدوى... وجدتني مرغماً على قول الحقيقة:

– البارحة...

– من الأفضل أنْ تخبرني وحدي عن أمر يخصّني وحدي.

في البداية لم تتفاجأ حين أخبرتها بما شاهدت، حيث كانت شبه متأكدة ممّا يجري لكن الصدمة التي كانت بمثابة الإعلان عن السقوط، كانت بانتظارها. قانون السقوط يفرض نفسه من جديد. تفاجأتُ حين بكت بكاءاً مريراً عرفت من نحيبها إنَّها تحب زوجها وإنها كانت على استعداد أنْ تتصالح معه، بالرغم من المعاناة التي تحمّلتها عنده. قد يكون بكاءها ناتج عن يأسها فالمرأة وجدت الباب مقفلا بوجهها، من الصعب أنْ يُفتح وذلك بعد ما أخبرتها بما شاهدت.

استيقظ طفلاها كامران وزهراء على إثر البكاء والنحيب. وجدتني أحتضنها بين يديَّ دونما أشعر بذلك بعدما أسندت رأسها على كتفي وحين علا بكاءها المرير الذي تتقطّع له نياط القلب. كان بكاءها اليوم أشدَّ وأقوى من بكائها على أبيها الذي مات بعد شهر إثر جلطة دماغية بعد ما أخبروه بتنفيذ حكم الإعدام بابنه، وأقلَّ بكثير من شدّة بكائها على أخيها... أقلَّ بكثير... ولاشيء أمام بكاء أمي ونحيبها الذي فتّت

الأحجار في مدينة الحجر والذي مازلت أسمع صداه للآن. أمي القدريّة أكثر من القدر نفسه... أمي التي كانت تؤمن بأنَّ كلَّ شيء مخطط بيد القدر، الحرب، التشرّد، الجوع، ... إلا فقدان حامد.

الخاتمة